دفاع عن اللغة دفاع عن النفس

أ.د. علي كاظم أسد

كلية الآداب - جامعة الكوفة

لا شكّ في أن نجاح سايكس بيكو في تقسيم الوطن العربي، جغرافياً، لم يكن يُرضي اللورد كريمر، إن لم يقسّم تقسيماً لغوياً، أيضاً، إلى عاميات؛ فتقسيم الأرض لم يكن أقصى غايات أعداء العربية، إن لم يكن تراثياً و دينياً، و هذا لا يكون إن لم يُقضَ على اللغة؛ و هذا هو عين ما تقوم به وسائل إعلام و فضائيات دفعاً من دراسات منظّمة تقوم على (أيدلوجيات) جادة مسخّرة تجدّ لقتل العربية الفصحى أو الفصيحة بتقبيحها و السخرية منها و التنفير منها، و تصويرها على أنها أصعب لغة، لتصحّ الدعوة إلى تبنّي اللهجات العامية على أنها لغات محكية، بحجة توخّي العصرية، و السهولة، و اختصار الزمن و تبني لغة العلم؛ و كل هذا يمرّ بالتشدّق باللهجات العامية و الانجليزية و الفرنسية و غيرهما، و السخرية من المجامع اللغوية العربية، لأنها لا تضمّ، كما يقولون، إلاّ مجموعة من العجائز و الديناصورات، و المحافظين و القدماء، و الأحجار الكريمة و المنعزلين عن العالم و دنيا العلم، و لا عمل لهم إلاّ بإدارة المناقشات الطويلة التي لا يملّون منها حول النقط و أشكال الحروف.....! و الهدف من هذه السلسلة الطويلة من العمل الجاد هو حصر هذه اللغة في زاوية منعزلة ثم القضاء عليها.

إنّ حدس أي غيور على لغته سيدلّه على أن هذه الفضائيات لا تقدّم اللهجات العربية العامية عن براءة و لا تقدمها عن عفو خاطر، و لا عن أن هدفها الربح السريع، أو التواصل السريع مع العربي بلهجته المحكية التي يحبها، و لا أنها تتجنب الفصحى أو الفصيحة لكونها قد تعسر على الفرد العربي، و لا أنها تقدم ما تقدم من مواد بالفصيحة التي تتكاثر فيها الأخطاء من كل نوع بذريعة حاضرة و هي أن مذيعيها أو مراسليها غير مختصين بعلوم العربية من نحو و صرف فهم مختصون بالإعلام أو القانون أو الإدارة..، كلا، بل لأن هذه القنوات تتعمّد هذا عمداً بقصد مدروس منظّم و بمنهجية أكاديمية، و ما تقدمه من حجج (بريئة) لا تبرأ من القصد و التصميم؛ فما يقدّم من مواد تجذب جمهورها من برامج تفسير للأحلام أو معالجة بالطب البديل أو برامج رياضية، أو عرض لآخر الأفلام،و برامج الأسرة، و برامج حل المشكلات، و برامج الأزياء و السيارات، و آخر التقنيات للهواتف النقالة و الحاسوب، و برامج الطبخ و التجميل، و المسلسلات و غيرها. و كل هذا بالعاميات اللبنانية و المصرية و المغربية و الخليجية....، كل هذا مقصود؛ فالفصيح ة تستوعب كل هذا و أكثر منه بدليل أن هناك فضائيات تقدم أكثر من هذا حين يقدمه مذيع بارع في الإلقاء و استعمال الفصحى كأحمد سالم مثلاً و غيره ممن هم مثله بحلاوة الإلقاء و جمال التقديم كالتعليق على برامج البيئة و عالم الحيوان و البحار و عرض الاكتشافات و سرد الحوادث التاريخية و السياسية و الحروب العالمية و سرد سير الشخصيات العالمية و غيرها؛ أما حجة حب العربي للهجته فهي حجة داحضة فكل ما ذكرنا من مواد تعرض بالفصحى و الفصيحة تستقطب كل عربي، بل يلتذ العرب بسماعهم لغتهم بإلقاء رخيم آسر، و يسوء العربي أن يُلحن بلغته إساءة بالغة، و يدرك اللحن و الخطأ، و لا يعذر المذيع و لا وسيلة الإعلام بأن يتولّى أمر قراءة نشرة الأخبار التي تقرأ في كل أركان العالم العربي بل الغربي و

اليهودي، أيضاً، من يخطئ بالعربية، أما أن المذيع أو المراسل غير مختص باللغة أو النحو .. فالحجة واهية لأن على كل متكلم بلغة ما يظهر على الناس في وسائل الإعلام أن يجيد اللغة التي يتكلم بها أو ينشر بها موضوعه، و لا علاقة لهذا بالاختصاص، فليس مطلوباً منه أن يلقي دروساً بالنحو أو الصرف في قاعات الدرس فليس الكلام باللغة العربية و لا بغيرها اختصاصاً؛ فقد تكلم بها الأميون و البدو و شعراء ما قبل الإسلام و يفهمها الآن حتى الأطفال، لأنها لغة حية محكية يتكلم بها أكثر من نصف مليار عربي و أكثر من مليار مسلم عربي و غير عربي بأمور دينهم و عقيدتهم و شعائرهم، بل إن الإدارة و القانون و الإعلام هي الاختصاصات و المهارات و اللغة، كل لغة، إنما هي فكر، و ثقافة، و تعبير، و تواصل يومي، فلا عذر بالاختصاص للخطأ بها، و على المخطئ أن يعتذر و يتعلّم كيفية استعمال كل لغة إذا أراد أن يتكلم بها؛ فلو أخطأت بحضرة انجليزي أو فرنسي أو هندي، أو أسباني، لقوّم خطأك فوراً و طلب منك أن تردد معه الصواب بلطف أو بعنف، فلا معنى للتذرع بذريعة واهية، هي: آسف، لا أجيد لغتك لأني لم أختصّ بها! فالأمر ليس أمر اختصاص، لأن الاختصاص بالعلوم؛ و إنما أمر استعمال اللغة بإجادة الكلام بها إذا أراد المتكلم أن يُفهم منه الكلام؛ فعلى من يسمع مذيعاً ما من هذه الفضائيات يخطئ و يقول: إن المواطنين نائمين الآن، و كانوا جالسون حول التلفاز! ثم يتدارك و يقول: عفواً.. إن المواطنين نائمون،.... ثم يتضجّر أو يتكلف الضجر و يقول: ما أصعب متابعة قوانين إنّ و أخوات كان... ثم يقهقه، و كأن من يسمعه يشاركه ضجره من هذه (التعقيدات)؛ فعلى من يسمع هذا التمثيل أن يحكم على هذا المذيع بأنه يتعمّد الخطأ و يمثّل و يتكلّف التمثيل لإيصال رسالة واضحة إلى من يشاهده فحواها أن اللغة العربية صعبة و تستنزف الوقت و لا معنى لقوانينها. و لقد وقفتُ على مذيع في إحدى هذه القنوات و هو يقول: مرت خمسة عشر ساعة.. ثم استدرك فقال: عفواً ! ثم قال ببطء و تضجّر،و نظر في أوراقٍ بين يديه و كأنه يراجع قواعد بناء العدد: مرت.. خمس.. عشرة...! أوه إنها معضلة في تطبيق هذه (القوانين) في نطق عدد أو رقم صغير في هذه اللغة! و يتناول منديلاً ليمسح حباتِ عرقٍ كذب، و كأنه خرج من حفر منجم!! و كلّ هذا ليصوّر (صعوبة) هذه اللغة و (تعقيد) التراكيب؛ و إذا به ينطلق خاتماً كلامه ببضع تراكيب أجنبية بلباقة و استرسال ليوحي بجمال تلك اللغة و سهولتها و يسرها، و يسترسل بلهجة عربية عامية (حفاظاً) على الوقت..! كل هذا اعتداء مقصود مدروس لطمس هذه اللغة و قتلها بعد هذا العمر الطويل الحافل بالإنجاز المشرّف و الإبداع و احتواء الحضارات، فكأنْ ليس في اللغات الأخرى قوانين و سنن و كيفيات و طرق للتركيب و ليس بها اهتمام في توجيه الألفاظ و تراكيبها إلى المعاني المختلفة و الإشارات و الإيحاء. أما أمر المجامع اللغوية و اتهامها بالانعزال و المناقشات الفارغة!! فكأن ليس في الفرنسية و غيرها مجامع لغوية تعنى بها، و ليس بها محافظون، بل أريد أن يعلم هؤلاء أن بوّاب عمارة في باريس كان إذا سألناه بالانجليزية، في بداية إقامتنا و لم نتقن الفرنسية بعد، عن بريد أو عن ضيف زارنا و نحن غائبون، أزورّ عنّا و تجهّم و لم يجب بشيء! متشاغلاً بشيء ينظفه أو يقرؤه؛ إلاّ إذا تكلمنا معه بالفرنسية !! فضلاً عن أن مجامع اللغات الأخرى أقدم من مجامع اللغة العربية و أنّ أعضاءها أسنّ من أعضاء مجامع اللغة العربية، بل أنهم أكثر تعصبا من أي متعصّب و أعنف و أشرس ! و إن المزدَرى لديهم هو الذي يخطئ بكلمة واحدة من لغتهم!!

إن هذا الذي تقدّم من هذه الفضائيات جهل باللغة العربية، و جهل باللغات الأخرى، بل جهل بمزيّة اللغة العربية على هذه اللغات، و هو العقوق و الظلم لهذه اللغة العظيمة، و الظلم للهوية و التراث و الدين و الكتاب العظيم و الانسلاخ من هذا كله إلى هويات أخرى و قوميات أخرى؛ فالانجليز أو الفرنسيون أو الأسبان أو أية أمة أخرى لا ينسلخون عن ماضيهم و لا عن تراثهم و لا عن لغاتهم؛ فللفرنسية مجمع، و كذلك للانجليزية، فضلاً عن مراكز لتعليم لغاتهم منتشرة في كل الأرض، بل لهم لجان و بعثات تبشيرية، تبشّر بالدين، و تدعو للغة الانجليزية أو الفرنسية، و تتنافس فيما بينها لبناء المعاهد و الجامعات و مراكز الأبحاث و مؤسسات للانتماء و الاحتواء؛ و لم يعلم هؤلاء الذين يظلمون اللغة أنّ النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم سبق هؤلاء بالدعوة إلى اللغة العربية كما دعا إلى الإسلام، بل جعل اللغة العربية انتماءً إلى الجنس العربي فإذا كانت اليهودية قومية و هوية يهود فإن اللغة العربية قومية و هوية المسلمين و كل من تكلم بها؛ فقد بلغ رسول الله أن ثمّة من عرض لسلمان و صهيب و بلال بأعجمية؛ فخطب بالناس قائلاً ((يا أيّها الناس، إن الرب واحد، و إنّ الدين واحد، و ليست العربية بأحدكم من أبٍ و لا أُم، و إنما هي اللسان؛ فمن تكلم بالعربية فهو عربي)) [1]؛ و إذا كان المرء بأصغريه: قلبه و لسانه؛ فما هو إذن، إلاّ اللغة؛ لأنّ اللسان ناطق معبّر عن القلب و لا يعبّر إلاّ باللغة عن مرادات هذا القلب و إشاراته و مكنوناته. و لقد دعا أبناء الأمم الأخرى قديماً إلى العربية و أوجبوا تعلمها ، بعد أن ذاقوا الكلام بها، و فارقوا لغاتهم و نشروا علومهم بها و انتشروا بها و نشروها؛ فهذا هو البيروني يقول: ((لئِنْ أُشتَمَ،

أو أُهجى، أو كما قال، بالعربية أحبُّ إليَّ من أن أُمدحَ بالفارسية)) ، و كان أغلب علماء العربية و شعرائها و مثقفيها و مفكريها و فلاسفتها، و مفسّري القرآن و علماء القراءات، بل كان واضعو علوم العربية، من نحو و صرف و بلاغة و بيان و نقد، و أئمة المذاهب الفقهية و الفكرية، من قوميات شتّى، و لم يؤثر عن أحد منهم أنه ألّف كتاباً بلغته أو فكّر أو شعر بلغة غير العربية، بل تنافسوا على تعلّمها، و تعمّدوا إخفاء قومياتهم و لغاتهم، لئلا تحول دون شهرتهم بالعربية، و للحظوة بالدنيا و الآخرة بها. و لم يؤثر عن أحد من هؤلاء أو من غيرهم أنه تضجّر منها لصعوبة أو تعقيد، بل توغلوا في إمكاناتها و أسرارها و مدحها و التفاخر بها، و تناقلوا أنها لغة أهل الجنة، بل أُثر عنهم أنهم صدّقوا حتى الأساطير التي روت إنّ آدم قال شعراً بالعربية حينما طُرد من الجنة، و التي روت أن الجن تتكلم بالعربية، بل لم يتخيلوا أحداً قال شيئاً أنه قاله بلغة غير العربية من ملك كريم أو شيطان رجيم أو أنهم تخيّلوا أحداً يتكلم بغير العربية من خلق آدم حتى يوم القيامة.

- دعوى الغرابة و التعقيد و الإطالة:

أما ما ادعوه من غرابة و خشونة و تعقيد و إطالة.. مما يجعلها، بزعمهم، لا تصلح لغة لهذا العصر الذي تطور فيه كلُّ شيء فاحتاج إلى السرعة و إلى لغة تستوعب العلوم و تواكب التطور و تختزل الوقت، و ليس في اللغة العربية هذا كلّه، و إنّ استعمالها مضيعة للوقت...! فليس ثمة لغة في الأرض تقوم على ما ادعوه، لأن المبدأ في اللغات جميعاً هو سرعة التواصل و تحقيق التفاهم و مواكبة التطور، فإذا أخفقت لغة ما في هذا ماتت سريعاً و لم تبقَ بقاء العربية منذ أكثر من سبعة عشر قرناً حيّة كما هي، و ليس من المعقول أن تعجز في أقل من نصف قرن، و يُراد لمئات الملايين من المتكلمين بها أن يتخذوا لهم لغة أخرى، ليستفيدوا من الوقت!! و هذا بلد عربي و هو سورية قد استوعب بها كل مصطلحات العلوم و ثمّة علماء في الحاسوب و هم منتشرون في كل أصقاع العالم العربي و الإسلامي و الأمريكي و الغربي أيضاً قد عرّبوا مصطلحات الحاسوب ببساطة و يسر و استيعاب.

أما الغرابة أو الوحشية و التعقيد و الإطالة، فليس هذا كله و غيره مما يدعون و يزعمون، من ذنب اللغة، بل هو ذنب الذي يستعملها؛ فثمة من ينحو بكلامه نحو التنطع و تكلّف النادر و الوحشي و الغريب و الخشن و الصعب؛ و كل لغة فيها جوانب مأهولة و أخرى هُجرت، فكلما طال عمر اللغة و اتسع نطاق استعمالها تراكمت مفردات من بيئات أو من مواقف و أحداث انتشرت على طول عمرها، فلِمَ يتقرى المتكلم مفردات تخص بيئات ارتبطت بأحداث محددة، و لِمَ يصوغها بطرق تركيبية تصعب أو تعسر على عموم التلقي و له مندوحة بمفردات و طرق تركيب يشترك بها مع التلقي العام؛ و من أراد أن يُغرب أو يتقصّد الصعب و النادر في كلِّ لغة فهذا شأنه و ليس من شأن اللغة، فضلاً عن أن الغرابة قضية نسبية، فما هو غريب في بيئة ليس غريباً في أخرى، و من بحث عن الصعوبة أو الوعورة أو الغرابة وجدها في كل لغة؛ و ليست بنا حاجة إلى التذكير بأن تعلّم اللغات و أمر انتشارها يقوم على المستوى الأول: الإشاري التواصلي السريع لا على المستويات البلاغية أو التأثيرية الخاصة التي تتحول فيها اللغة إلى رموز عليا و تكون اللغة هدفاً لا وسيلة، فلا يحكم أحد على اللغة من هذه الزاوية التأثيرية الخاصة فليس كل الكلام شعراً أو قرآناً و ليس كل المتكلمين شعراء أو خطباء. و هذا كله من جهة، أما من جهة أخرى فقد نأى أهل الجاهلية أنفسهم و منهم بداة قبل أهل المدر و الحضر عن التقعّر و الغريب و الوحشيّ و النادر فقد كانت لهم أسواق يعرضون فيها، فيما يعرضون، بيانهم المؤثر من شعر و نثر، و لا يؤثّر شعر أو نثر إن لم يكن قد مرّ على مستوى الكلام الأول و هو البيان و الوضوح و الانسياب كي يستمرأه المتلقي و يسيغه فيتأثّر به، إذ كيف يكون الإبداع باللغة شعراً أو نثراً إن لم يكن سائغاً واضحاً؛ و ثمّة منحىً، كان قبل الإسلام، نحاه شعراء جاهليون بداة أطلق عليهم مصطلح (الشعراء الحوليين) أو المحككين أو المحبّرين كانوا يجعلون عقولهم عياراً على ما يقولون ليكون شعرهم أكثر انتشاراً و استقطاباً و أبعد تأثيراً؛ و هذه قريش كانت تقعد على قارعة الاختيار لما سهُل من المفردات و حلا من الاستعمال فتضيفه إلى مخزونها المختار من اللغة و تجبى إليها قلائد البيان من كل قبائل العرب في مواسم الحج و مواقف النزاع و الفصل و تجمع العرب في أكناف مكّة و أسواقها القائمة على طول العام حتى غدت لهجتها لسان العرب و مفصّل التنزيل، فهي اللغة المتداولة في عموم الواقع اللغوي العربي، و لما جاء الإسلام التزم جانب الإبانة نفسه و أمر الاستعمال الصحيح و حذّر من التفيهق و التقعر و استعمال كلام الجفاة و الأعراب البداة المنعزلين في صحاريهم البعيدة، و كذلك فعل الصحابة و التابعون و الفصحاء و الخطباء و تقبّضوا من التندر و الوحشية و التكلّف و تركوه لمن بدا و جفا طبعه، و أثر عنهم إن التعقيد و التنافر من كلام الجن و أهل القبور و الأشباح المرعبة، بل نهى الرسول صلى الله علية و آله عن سجع الكهّان و طلاسمهم و تنافثهم بالمرعب و النادر و الغريب و تكلّف السجعة و ركوب الصعب لاستجلابها، بل تمثّل أهل العلم و البلاغة بـ :

و قبر حرب في مكان قفرِ و ليس قرب قبر حربٍ قبر

و هزأوا به و سخروا منه، فمنهم من قال إنه مثل مصنوع و تناذروه ليكون عبرة لمن يسلك مثله تعبيراً معقداً متقارب المخارج؛ بل ذكروا إنه من كلام الجن لتعقيده و تقارب مخارجه و لا يقول هذا أو مثله بشر إلاّ من الجن إذ لا مخارج للألفاظ عندهم مثل مخارج الإنس، بل إن العرب أحفظ الناس للكلام و أروى البشر للشعر لسهولة الكلام و وضوحه و انسيابه و تجانسه و أخذه بعضاً برقاب بعض و قد تحامت العرب التنافر و التناقض و ما لا ينسجم و لا يطرد و عن الشاذ حتى لو وافق القياس المنطقي أو التقعيد المدرسي و تجد فصلاً في الخصائص لابن جني سمّاه (**امتناع العرب من كلام بما يجوز في القياس**)[2] و لذلك اطرد السماع لسهولته و انهماره مع الألسنة و الشيوع، و سرعان ما انخرط الأعاجم في إتقانهم اللغة العربية و انصهروا في المجتمع العربي و حضارته و ثقافته و لم ينسلخوا عنه إلاّ بالموت و تناسلوا فيه كأنهم وُلدوا من آباء و أجداد عرب، حتى يصعب التفريق بين من هو عربي و من تكلم بالعربية من غير العرب، و ما هذا إلاّ بفضل هذه اللغة، و لو كان في اللغة شيء من توعر و تعقيد ما انساب بين أثناء الزمان غضا متهادياً محفوظاً مستساغاً، و إنما الحفظ للكلام المبين الواضح السائغ؛ فضلاً عن أن من مبادئ رواية الكلام و الشعر و النثر: أن تصلح الرواة من أشعار شعرائها و خطب خطبائها و يروونه على أساس التنقيح و النقد ليكون سائغاً مؤثراً[3]،بل إن المبدأ الأعظم و الدستور الأفخم للعربية بلاغة و توصيلاً و إعجازاً هو موافقة الكلام لمقتضى الحال، و إن أول شيء ترفضه اللغة العربية هو التنافر و التعقيد و الغموض،و أن أول لبنة في بناء العربية هي أمن اللبس و لا يتحقق بالتعقيد و تراكم الألفاظ في الصياغة أو في بناء المفردات و أنّ ما طُوّع من بنىً للمفردات بعيدٌ عن أصولها و جذورها النظرية؛ أما تحولاتُ صيغها البنائية فمبنيٌّ على الانسجام و التآلف و عدم الابتداء بساكن و عدم الانتهاء بمتحرك و عدم التقاء الساكنين و عدم الانتقال من علوٍّ إلى انخفاض و عدم الجمع بين متباعد المخارج أو متقاربها، و السلسلة من التحذير طويلة [4] لا تكاد تنتهي في بناء المفردات أو بناء الجمل ليكون الكلام يسيراً سهلاً مبيناً هادفاً. و لم يترك الأمر من علماء العربية و من قبلهم من العرب الذين لم يتكلموا على هدي نظرية أو منهج أو اصطلاح و إنما على هدي الذوق و السليقة و الفطرة أقول لم يترك الأمر على ما تقدم حسب، بل لاحقوا الكلام من حيث الفضول و الحشو و الزيادات فأطلقوا عليه الهُراء و الهذاء و الإسفاف و اللغو و الباطل و ميّزوه من الإطناب و هو التطويل بفائدة؛ فما ذنب العربية، بعد هذا، إذا تفاصح الجاهلون و تناطحوا بالوعر و الغريب و النادر، و ليس ثمّة لغة فيها من المترادف و المتقارب من الألفاظ و المرونة و المطاوعة للقياس و اتساع السماع لطول عمرها كاللغة العربية فلِمَ يلجأ بعضٌ إلى ما يكون سبباً ليأخذ عليها المؤاخذون ما زعموا من غرابة و إطالة و تعقيد؛ و قد عُنّف نحاةٌ على أمثلة صوغ غريبة معقدة صنعوها تقرّياً لوجوه الممكن أو المحتمل من وجوه الصوغ لملأ فراغ قواعد و ليس لها في الكلام أو المسموع محلّ؛ بل عُزِل شعر أو شعراء أو أمثلة من كلام غريب أو نادر و حفظ على أنه من المهجور أو المصنوع ليكون مثلاً – يُتوقّى منه فلا يُسلك- ؛ و عُنّف شعراء على التعقيد و التنافر و الأغماض منهم أبو تمام، و عيب على الكميت و الطرماح أخذهما من كلام البدو حينما توخيا الغريب و النادر، على شاكلة رؤبة و أولاده و أحفاده، و ميّزوا بين مَنْ كلامه النادر و الغريب، سجيّة أو بيئة، من المتحضّر و المدني، و حذّروا الثاني من التشبّه بالأول و التكلّف لمشابهة الأول، و مدحوا البادي إذا تكلّف التحضر، و حذّروا من الوقوع بعيداً عن المعنى و دعوا إلى القريب من الألفاظ و المعاني، و كان لهم مصطلح دقيق يصفون به من يجانس بين ألفاظه و يقارب بينها وهو مصطلح (القِران) و ضدّه مصطلح (المباعدة) بين الألفاظ أو بين المعاني و الألفاظ، و ما كتاب الجاحظ الذي عنوانه (**البيان و التبيين**) إلاّ دليلاً على عناية اللغة العربية و سدنتها بالبيان و الوضوح في كل مستويات الكلام الإبلاغية و التأثيرية، بل حسّنوا أمر الانسجام و الائتلاف و الانسياب حتى ذكروا أن النص لانسجامه كالجملة الواحدة و القصيدة كلها كالبيت الواحد و الجملة الواحدة أو البيت الواحد كالكلمة الواحدة[5] و قبّحوا أمر التنافر في النص أو القصيدة و أطلقوا على الأبيات المتباعدة الألفاظ (أولاد عَلّةٍ).

و عنّف شاعرٌ شاعراً آخر على تعقّد ألفاظه و تباعدها و كأنها يضرب بعضها وجوه بعض، و كان الشعراء يعرض بعضهم على بعضٍ شعره حتى إذا استوى أذاعه بين الناس لسداده و استوائه و قربه من التأثير؛ و لم ينج كبار شعراء العربية المبدعين المؤثرين كابن الرومي من الأخذ على إطالته و تراكيبه المملة في كثير من الأحيان؛ و أمر تفضيل شاعر على شاعر أوجز المعنى بأقصر لفظ و أحلاه مشهور متداول في كتب النقد و البلاغة، بل أجازوا لشعراء آخرين سرقة غيرهم إذا كان السارق أوجز و أقرب و أبْين و ذكروا أنه أحقُّ من الأول بالمعنى لوجازة اللفظ بل اعترف الأول للثاني بما أخذ منه على أنه للآخذ إذا كان انجازهم ضحية الإطالة. و لا بد من أن يعلم من يدعي على العربية (الإطالة و تضييع الوقت) إن الإيجاز و الاختصار و التكثيف مع الوضوح و التأثير من مبادئ العرب في تعبيرهم، فهذا شاعر نُبّه على أن كلامه قصير موجز في المدح أو

الهجاء فقال: يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق ! أو كما قال؛ فإذا كانت اللغة العربية في أصل إمكاناتها تعين على الإيجاز و لما كانت العرب في جوهر فطرتها تميل إلى الاختصار و التكثيف فقد التقى الأصلان، و ما كان العرب بميلهم إلى الإيجاز إلاّ لأن لغتهم قدّمت و أعانت و رغّبت حتى استطاعوا أن يتفاهموا ميلاً إلى الوجازة بأقصر الكلمات و أقصر الجمل حتى استحبّوا الحذف و آثروا الإسقاط إذا توافرت لهم القرائن بل إن متكلمي اللغة العربية و مبدعيها يعتمدون على ذكاء السامع و فطنته و حسن تقديره، فباب الحذف أشرف أبواب العربية، و باب التقدير أكبر أبواب النحو و أكثره متنافسين، فالتضمين و هو إشراب الأفعال و المفردات بعضها معاني بعض و إبقاء الحروف دليلاً عليها من أوسع أبواب العربية حتى إن تفسيراً كبيراً نفيساً ككشاف الزمخشري أطلق عليه كتاب التضمين لكثرة آراء الزمخشري في هذا الباب، فما بال المتكلم لا ينظر إلى هذه الأبواب ليتجنب الإسفاف و الإطالة و ضياع الوقت، و في العربية مثل هذا الكم من الإمكان اختزال في الزمن إلاّ أن يكون هذا المتكلم جاهلاً بإمكاناتها؛ ففيها من صيغ المفردات ما يعين على الاختزال كأصول الثنائي و الثلاثي أو في بناء الجمل و المرونة في توفير القرائن للحذف و الإسقاط و التضمين، و المعروف إن الإيجاز من سمات المتكلم و من جهده و عقله و ذوقه و ذكائه ما دام للغة مثل هذا الإمكان؛ فقد نقل عن أحد رجال السياسة العرب المعاصرين أنه كتب إلى أحد أصدقائه الغربيين رسالة أطال فيها فختمها بالاعتذار عن الإطالة و علّلها بأن لا وقت لديه للإيجاز !! فللمتكلم أن يقول: طرقت أحد معارفي و غدوت إليكم؛ فيُفهم من أنه نزل على أحد معارفه ليلاً و جاء صباحاً لأن الطروق في الليل و الغدوّ في الصباح؛ و لكنّ المتكلم إذا جهل إمكانات اللغة أطال فقال: طرقت أحد معارفي ليلاً و غدوت إليكم صباحاً. و إذا كُتب على واجهات المتاجر الآن: يوجد لدينا أجهزة حديثة و (لدينا) تغني عن (يوجد) و العكس صحيح: لكُتب: لدينا أجهزة حديثة ! و انتهى الأمر. و يقال: كما قلنا سابقا ! و في الفعل (قلنا) غنيً عن (سابقاً) لأنه ماضٍ و لا داعي لـ (سابقاً). أو يقولون: تم افتتاح ! و لو قيل: افتُتح لكفى، أو يقولون: تُجرى مناقشة الطالب، و لو قيل: يُناقَش الطالب، لاكتُفيَ بهذا التعبير.

فما دخل العربية، إذا سلك بعض مستعمليها سبل الإطالة، أو التعقيد أو الغريب أو النادر من الألفاظ، و كانوا حجّة لمن يتصيّد المثالب؛ و هذا هو القرآن الكريم، و هو قمة في اختيار الألفاظ و استعمالها و الصورة العليا للإيجاز مع كمال الإشارة و الدلالة بشهادة أهل اللغة من الكفار قديماً، و أهل العلم بالعربية ممن لم يؤمنوا به و علماء الأساليب و أهل الخبرة الآن من المسلمين و المستشرقين من أدباء الأديان الأخرى، و هو يجري على اللسان كما يجري الدهان، و يحفظه الأطفال ممن بلغ الخامسة بل يُوصى بحفظه من الصغر إذ لا يكاد الصغير قد تمكن من مخارج ألفاظه، فما بالك بمن بلغ مدرجه الصوتي و مخارج ألفاظه مبلغ التمام كيف يجري على لسانه القرآن، و أكثر هؤلاء الصغار ممن يحفظون القرآن ليسوا من العرب أو من بيئة الاستعمال العربي، و يفوزون بجوائز الحفظ و التجويد و الترتيل، و لا يفقهون كلاماً عربياً إلاّ القرآن، و القرآن بأفصح لغة، و لم يسمع هؤلاء فصاحة أو لغة أو لهجة عربية.

و إني لأقف في طريق هؤلاء الذين يصفون العربية بالصعوبة أو التعقيد أو العجز عن المواكبة و الاستيعاب و أتحداهم بأن يأتوا بكتاب أو ديوان و يحفّظوه لطفلٍ من غير لغته أن يجدوا أحداً يحفظ هذا الكتاب أو هذا الديوان، كما يحفظ أطفال الأمم غير الناطقة بالعربية القرآن، و قد مرّ ذكر مصطلحات من مثل: السهولة، و حسن السبك، و التأليف، و النظم، و كثرة الماء؛ و يكفي أن علماً من علوم القرآن، و القرآن استعمال معجز لأقدم ألفاظ العربية بحساب الزمن الآن، و أعني بهذا العلم علم التناسب أو المناسبة الذي ينتهي علماؤه إلى أن القرآن على طوله و تنوع أهدافه و مضامينه و معانيه و مواقفه و مكيّه و مدنيّه و نزوله في سهل و جبل و تنوع أساليبه كالكلمة الواحدة نظماً أو تأليفاً و تهادياً و انسجاماً و ليس هذا قولاً جزافاً أو من ميل عقائدي أو من تبشير أو دعوة بل حكم موضوعي مستقلّ، فهو يفسّر بعضه بعضاً و يفضي بعضه إلى بعض، مختارة مفرداته لتتواءمَ مع نظام تراكيبه لا يشذّ عنصر من عناصره لحد الحرف الواحد أو الكلمة الواحدة، و لا يمكن أحداً أن يستبدل بشيء منه شيئاً آخر إلاّ أثّر هذا الاستبدال فيه كلّه و لا يغني عنصر مهما علا اختياره عن عنصر بدءًا من المفردة مروراً بالتركيب الأدنى صعوداً إلى السورة الطويلة.

و ما سبق من مصطلحات دارت و هي تدل على بيان العربية و مرونتها و نصوعها ما هي بمصطلحات حسب بل لبنات السهولة و اليسر في النطق و التركيب و الخطاب فضلاً عن كتب التيسير في النحو و الصرف أي تُعنى بتقرّي السبل الممكنة لاستعمال هذه اللغة؛ فأين التعقيد في لغة اهتم بها علماؤها من عرب و عجم بدءًا من اسمها الموغل في القدم و هي العربية أي المبينة لأنّ مادة عرب هي الوضوح و الأعراب [6] أي تقديم الوضوح و البيان و لم تسمَّ بلغة العرب بل العربية فتسمّى القوم الذين يستعملونها بالعرب أي ذوي الإبانة و الأعراب و ليس اللبس و الغموض و التعقيد، فلم تكن لغة و حسب بل هي عنوان القومية

و هي اللغات التي تسمّى مستعملوها بصفتها التي يفتخرون بها على أنها مبينة معربة و إن غيرها ليست كذلك فهي اللغة العربية و الذين يستعملونها العرب، و أغلب ما يدور في مادة (عرب) معاني الإيضاح و الإفهام و الإفصاح و الإبانة؛ و أغلب ما يدور من معانٍ لمادة (عجم) عكس الإفهام و الإيضاح و الإبانة (إلى ما هنالك من معانٍ أخرى)، و بلغوا من فخرهم بها أنهم أطلقوا على كلّ ما عداهم أو من تكلم بغير لغتهم (أعجمي) و (أعجم) و (عجمي) و كأنّ كلّ لغة حتى و أن كانت مبينة عجماء لا تبيّن إلاّ لغتهم، و كأنهم حينما وعوا إمكاناتها آمنوا أنّ غيرها لا يعرب عن الأشياء [7]؛ لذلك لم تكن لغة من اللغات أساساً للهوية القومية كاللغة العربية؛ فاللغات من عناصر القومية و لكن أن تكون أساس القومية فهذا لا يكون إلاّ لهذه اللغة، و لهذا جعل الرسول الأكرم محض الكلام بها انتساباً إلى العرب، و لم تكن لغة مثلها يجد العربي فيها تراثه الذي هو ماضيه الحضاري و معتقداته التي هي دينه و آفاق روحه و ثقافته منذ أن أطلق على قوميته صفة العربية و كيف يزعمون عدم مواكبتها للتطور و عجزها عن استيعاب العلوم و قد استوعبت قديماً آلاف الكتب اليونانية و غيرها و ما أبدعت الإغريق من علوم معقدة صعبة متنوعة من فكر و فلسفة ورياضيات و فلك و منطق و الآن تعجز عن استيعاب الجديد من اكتشافات و تطور في السياسة و الأدب و الطب و الفيزياء و كل جديد و تغطيها بما في قدرتها من قياس و اشتقاق و مرونة و تصرف بما لا تستطيع لغة ملاحقته إلاّ بالاستعارة من لغات أخرى، فضلاً عن تكوينها و تغلغلها في اللغات المجاورة من فارسية و تركية و كردية و هندية بل فرنسية و انجليزية و من قبلهما الأسبانية و تأثير في اللغات الهندية و الأفغانية و البربرية و اللاتينيات عموماً، بل إنها محت القبطية في مصر و البونيقية في الشمال الأفريقي، و النبطية في العراق، و اللاتينية في الشام [8]، فهي بين محو اللغات الأخرى و بين تأثيرها فيها، بل أصبحت وسيلة صهر لكل الأمم و الحضارات التي لا نستطيع أن نفصل أجناسهم و أوطانهم و لغاتهم و قومياتهم من أئمة الفلك و الرياضيات و الكيمياء و الطب و الفلسفة و العلوم الأخرى [9] فضلاً عن علوم العربية و هي البلاغة و النحو و الصرف و النقد و علوم الشريعة و الفقه و العقائد و التفسير و الحديث و أصول الكلام فهذه كلها كانت من نتاج كل الشعوب و الأمم و الحضارات التي انصهر في حومة الإسلام فلم تدخل هذه الأمم الإسلام و لا خدمت اللغة و العقيدة بالقوة و الإكراه؛ و أعود إلى رأس أمري فأقول: أين التعقيد في لغة اهتم أبناؤها بها بدءًا من أبنائها في الجاهلية و مروراً بالإسلام فقد أثر عن الرسول أنه سمع لحناً من إنسان فقال: أرشدوا أخاكم فقد ضلّ فسمّى الخطأ بها ضلالاً؛ مروراً بالصحابة، فقد أمر عمر والياً أخطأ كاتبه بها، فنسي عمر ما جاء في الكتاب من أمر، و كتب إلى الوالي أن قنّع كاتبك سوطاً، للحن في الكتاب، و وجّه الإمام علي عليه السلام أبا الأسود الدؤلي في وضع حدود للكلام ليحوطها بالصحة و السداد، و لا يمّر جيل إلاّ و فيه كتاب – كما قدمنا – ينبّه على اللحن منذ أول عهود التدوين، فلم يخل العين للخليل من هذا التوجيه و وضع الكسائي (189) كتاباً خاصاً هو **لحن العامة** و وضع أبو عبيدة (213) بالعنوان نفسه كتاباً أيضاً، و الزيادي (236)، و المازني (248)، و السجستاني (257)، و وضع ابن قتيبة (276) **أدب الكاتب**، و وضع الزبيدي (279) **ما تلحن فيه العامة** ، و وضع الحريري **درّة الغواص في أوهام الخواص** ، و وضع ابن كمال باشا(941) **التنبيه على غلط الجاهل و النبيه**؛ و يستمر هذا – الاهتمام باللغة – إلى الآن بما لا يجده أحد في لغة من اللغات؛ و كله دليل على أن اللغة شيء و سلوك المتكلم شيء إذا أخطأ فأطال أو إذا جهل إمكانات اللغة فأسفّ أو أوعر أو أغرب، و إذا بمتصيّد لأخطاء المتكلمين ينسبها إلى اللغة العربية على أنه من عيوبها نقصاً من قدرها و جهلاً بإمكاناته ا فإذا كان جهلاً فليعلموا: أنها نظام قائم على الذكاء و الذوق و تقرّي الفطرة و احتواء الانفعال، و الجرأة و الانفتاح على الأسلم و حمل الشيء على الشيء لقربه أو ملابسته أو مشابهته و حمل المعنى على المعنى أو التغليب، و بعدٌ عن القياس العقلي و قرب من الاستعمال و خلو من التوعر و التقعر و لذلك تشبثت بالحياة و امتلأت بالإبداع و الارتجال و الإيحاء فواكبت العقل و الفطرة و شاعت في الإنسانية و تكلم بها الله فأفاض بها في قمم الدلالة السامية و لم تقصّر، فكيف لا تواكب التطور و العلوم و قد احتملت القرآن العظيم و هو كلام الواسع المطلق العليم لقدرتها و مرونتها و إمكاناتها و اتساعها حتى لم تعد رموزاً للأشياء أو إشارات إليها، بل هي الأشياء و هذا هو السر في تعميرها و السبب الذي هو بمثابة النبض الذي يجعلها لا تغادر الحياة و هو البعد الأهم الذي جعلها تواكب كل طبقات المجتمع العربي بما فيه من أحداث و هموم و علو و استفال و تهيأت لها وسائل التنمية و استيعاب الحضارات و الثقافات و العلوم و الفنون و مع هذا بقيت على أصولها و نظامها و قوانينها لارتباطها بالكتاب العزيز و العقيدة الإسلامية و لجهود أبنائها من عرب و من مسلمين من قوميات أخرى فقبضت على زمامين في آن واحد و هما التطور المنضبط و البقاء بلا انفصال أو تشتت.

فليس ما زعموا إلاّ افتراء عليها هدفه القرآن و الهوية و فرض النفوذ بما فيه من ثقافة و لغة و فكر بالفضائيات و وسائل الإعلام و شبكات التغلغل (الإنترنت) التي تحاول فصل المسلم و

العربي عن ثقافته و مجتمعه، لأنهم على أتم الإدراك بأن عربية مستعمل اللغة العربية تأتي اندماجه في الفكر العربي و الثقافة العربية لأن هذه اللغة تكسب من يتبناها سمات العربي الفطرية و هي الذكاء و الانفعال و الإبداع فلا تجد فرقاً بين من يستعملها و من هو من قوميات أخرى و بين عربي القومية. لذلك يدخلون من مداخل قد تخفى على الشباب و الناشئة منها[10] أن العربية الفصحى قد تربط الحاضر بالماضي، و لكن مع النهضة العلمية و مواكبة العالم لا بد من الكتابة بالأحرف اللاتينية و اعتماد اللغات الأخر ى لربط الحاضر بالمستقبل، و يسوّغون هذا بأنّ الأخذ بما ذُكر إنما هو مبدأ إنساني للالتحاق بركب الثقافة مع مليارات الناس المتمدنين و للاتصال بهم بما هم فيه و هو خير من الانفصال عنهم، و التشبّث بالفن العربي و الخط العربي و اللغة العربية القديمة، فالتزام العقل و الجانب العملي خير من العاطفة و التزام الجوانب القديمة، و إن اللهجات العامية سهلة الكتابة بالأحرف اللاتينية ! و ينسون أن كثيراً من اللغات تكتب بالحرف العربي؛ و ينسون إن هذه الدعوات قد تنطلي على بعض الناس و لكنها لا تمرّ على المحققين.

- دعوى الصعوبة:

تعدّ هذه الدعوى أخطر الدعاوى التي واجهت اللغة لحد الآن، ليسر إطلاقها و سهولة سريانها بين العرب المعاصرين أنفسهم لأسباب منها:

١ - عجز المؤسسات التربوية الأكاديمية و واضعي المناهج عن تقريبها إلى أهلها.

٢ - إحساس الناشئة و التلاميذ و طلاب الجامعات بسبب ما تقدم لا لصعوبة اللغة.

٣ - إتقان المؤسسات الغربية للمناهج التدريسية للغات الغربية جعل من دعوى صعوبة اللغة العربية سائغة مقارنة بعجز المؤسسات العربية و المناهج التعليمية عن نشر العربية و تدريسها، و ليس لسهولة اللغات الأخرى أو صعوبة العربية.

٤ - ضعف الإعلام العربي و تتابع الأزمات السياسية على الوطن العربي عن نشر اللغة العربية و الاهتمام بها مقارنة بقوة الإعلام الغربي و تفرغه لثقافته و فكره و لغته.

٥ - سعة اللغة العربية و كثرة إمكاناتها و بدلاً من وصفها بالثراء سهُل عليهم القول بالصعوبة.

فضلاً عن أسباب أخرى جعلت من هذه الدعوى في صعيد التصديق و القبول بين الناس من عرب و من غيرهم.

على أن الحقيقة التي يجب أن يقف عليها العرب المعاصرون إن الأمر على خلاف ما ادّعي، فلو كانت اللغة العربية صعبة لما أدرك أبناء الأمم الأخرى كنهها و أخصّ خصائصها حتى أتقنوها و أجادوا فيها و درسوها و استنبطوا قواعدها و قوانينها و أسرارها و درّسوها للعرب أنفسهم على ضعف الإعلام و غياب الدعاية لها و مؤسسات الدعم الموجّه و وسائل الاتصال التي عرفها الناس حديثاً؛ فقد كان أولاد الخلفاء و هم من العرب يؤدبهم علماء من أبناء القوميات الأخرى، و كان مترجمو الكتب اليونانية و الإغريقية و اللاتينية و الفارسية و الهندية و غيرها كانوا من قوميات شتى، كانوا من الروم و الفرس و الترك و الهند و غيرهم و هم يجيدون اللغة العربية إجادة تجعلهم يتقنون النقل إليها على تنوع العلوم المنقولة و عمقها و خصوصيات اللغات المنقول منها؛ و كان كثير من أئمة المذاهب الفقهية و القراء و رجال الحديث من الموالي و غير العرب، و كذلك رواة اللغة و بعض صنّاع المعاجم و البلاغيون و النقاد و رجال الفلسفة و الثقافة و الفكر و أكثر الشعراء المحدثين و من قبلهم من الإسلاميين ممن نشأ في اللغة العربية و لم يكونوا عرباً؛ و أن أول كتاب فتح أبواب علم النحو و ضمّ علوم اللغة من صوت و صرف و نحو هو كتاب سيبويه الفارسي الذي لم يخرج النحاة عن حدوده و آفاقه لحد الآن حتى أطلق عليه اسم **الكتاب و البحر** تعظيماً له و لعمقه و اتساعه وشموله و ضبطه فهو ككتب أرسطو في وضع قوانين الفن و الأدب و الشعر و النثر و المسرح و الأجناس الأدبية عند اليونان قديماً و عند الأوربيين و مدارس النقد الغربية عامة الآن، و كذلك كان من علماء العروض و موسيقى الشعر ممن لم يكن عربياً، و لا أدري كيف تكون هذه اللغة صعبة الآن على أبنائها و سهلة على الناس كافة قبل الآن إلاّ لقوة أعدائها و ضعف أبنائها.

و لو كانت صعبة – كما يزعمون – لما كان لها هذا التأثير في اللغات الهندية و الأفغانية و التركية و الفارسية و الكردية و البربرية و الأسبانية و اللاتينيات عموماً، و إنها – كما ذكرنا – محت القبطية في مصر و البونيقية في الشمال الإفريقي، و النبطية في العراق، و اللاتينية في الشام [11]، و لما ألّفت القدر الواضح من اللغات جاورتها أو التي احتكّت بها، بل إن الخط العربي خط تكتب به مئات اللغات.

و لو كانت صعبة – كما يوجّهون – لما كانت لغة الصلاة و أداء الشعائر و المناسك و مصطلحات الدين و العقيدة؛ فما كان الله ليشقَّ على الناس أو يعنتهم أو يجعل عليهم في الدين من حرج، أو كان لينفّر عن دينه الذي ارتضاه للناس كافة و أتمّه عليهم بصعوبة في لغة، و الدين

ممارسة روحية لا تتفق مع العنت و الحرج و الصعوبة، و تجري مجرى الهواء و اساغة الماء ليفرغ المؤمن بالإسلا م لأمور صلاته و تلاوته و دعائه و عروجه في ملكوت الروح و الارتفاع عن المادة بلغة سهلة سمحة تتفق مع الفطرة و تجري كالنسيم لا يشعر به المتنفس. و محض جعلها لغة العقيدة و الدين إشعار للمسلم بأنّ هذه اللغة ارتفعت عن كونها مادة و وسيلة إلى أن تكون هي الهدف بعد أن يتصل المخلوق بالخالق بها إذا ردد لله كلماته و آياته بها، أو اشتقّ من هذه الآيات كلمات دعائه و صلته بربه؛ فمن صدّق أو قال بصعوبتها فهو إما مخالف لفطرته إنساناً بقصد أعمى و هدف أعوج لنفع زائل أو دفع مريض، أو أنه جاهل بكنه اللغات لا يدري سبيله بين مفاهيم اللغة و البيان و الذوق و الحس السليم.

و لا أدري أين هذه الصعوبة في لغة تكلّم بها البداة في كل أركان الجزيرة على اتساعها و تفاهموا بها و تفاصحوا و تنادروا و شعروا حتى إذا جاء الإسلام شقّت طريقها إلى الناس كافة ثم تخطّت العصور فأثروا لغاتهم منها دلالات و ألفاظاً و استعمالات و إمكانات و عبّروا بها عن متغيرات وجدانهم من حزن و فرح و خوف و ناجوا بها إلههم سرّاً و إعلاناً، و المتكلم على تنوع تعبيره يجول بها في هدفه الإشاري الأدنى بحسب ما وهبه الله من ذوق و حسّ و عقل، و في هدفه المؤثر بأجناس أدبها المتنوعة، و في فهم المعجز منها في أعمق مستوياته الغيبية، فهي لا تتخلّف عن المتكلم الأدنى و هي بيد المتكلم المطلق في آن واحد.

و لم تتوغل في أقاصي الأرض بقوة السيف أو سلطة الخلافة كما يزعم بعض ذوي الأغراض؛ فلم تلزم الدولة الإسلامية أحداً أو شعباً بالتكلم بها، و إنما فرض الشرع أن تكون قراءة الفاتحة و آية بعدها في الصلاة الواجبة باللفظ القرآني؛ و إنما انتشرت اللغة العربية بقوة تأثيرها و إمكاناتها و جمالها و سهولتها فكانت لغة الناس الذين دخلوا الإسلام أو دخلوا في الحياة العربية و الإسلامية و لم يدخلوا الإسلام، و كانت لهم لغاتهم فاشتركوا جميعاً بالكلام بها و التأليف و التنظير بل حتى الصراع اللغوي بهذه اللغة، و هذا كله كان بعيداً عن منطق القوة و التسلط و قريب من القوانين اللغوية المعروفة و هي حيوية اللغة و فاعليتها و سهولتها و نشاط المتكلمين بها و تقديمها بقوة دينهم و كثرة عددهم ((فالصراع اللغوي بين اللغة و اللغات الأخرى و اللغات المنطوقة و المحلية كان بعيداً عن منطق القوة و التسلط))[12].

فلم يُكرَه أحد على الكلام بها بعد اعتناقه الإسلام و إنما الإكراه و الإلزام بلغة ما من سلطة أو قوة سرعان ما يضمحل، و لا يلتزم شعب أكره على لغة إلاّ في دواوين السلطة الملزمة و دوائرها، و يظل الشعب المُكره يمارس لغته في أدبه و عقيدته و خلواته، أو يظل يرنو إلى اليوم الذي يتخلص فيه من تلك السلطة الملزمة و يحنّ إلى لغته حتى و إن أكره أولاده على لغة أخرى كما حدث في الجزائر مثلاً؛ و لو كانت الشعوب المسلمة قد أكرهت على اللغة العربية ما ظهر أدب و لا ظهر فن أو خط أو زخرفة أو دين أو علم أو تنظير أو ثقافة أو فكر أو تفسير من أبناء هذه الشعوب باللغة العربية فضلاً عن أن سلطة الخلافة قد ضعفت في الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة، بل لم تظهر بقوتها حتى في عهد بني أمية الذين فضّلوا العرب على الموالي، نعم، فعل العثمانيون بسياسة التتريك هذا ففرضوا تعلّم لغتهم على العرب، من بين من استعمروهم، في المدارس و مرافق الحكم، و لكن عمر اللغة التركية التي كانت أكثر مفرداتها عربية و كانت تكتب بالأحرف العربية هي و الفارسية و الكردية كان كعمر الاحتلال التركي، و لم يتكلم بها أحد إلاّ في طلب وظيفة أو كان طالب مدرسة و سرعان ما ينساها؛ بل كان رجال الحكم الأتراك و كثير من الأتراك يتكلم العربية و يشعر بها و نبغ علماء أتراك في علوم العربية كتبوا بالعربية كتبهم و لم يمنعهم مانع و لم يفرض عليهم أحد العربية في أثناء سياسة التتريك هذه. فضلاً عن أن أغلب ملوك الإسلام كانوا أبناء أعجميات و لم يُعرف عنهم أنهم تبنّوا لغة غير لغتهم العربية.

إن اللغة التي تُفرض لغة مكروهة لا يقبل عليها أحد إلاّ بالإكراه و الإكراه دليل عدم تقبّلها و إلاّ ما فُرضت، لذلك لم تحتج العربية إلى فرض و إنما أقبل الناس على تعلمها و الكلام بها حباً لها و عشقاً، و إن من دخل الإسلام أو الحياة العربية من أبناء الأمم الأخرى و صار من علماء العربية و من شعرائها و مثقفيها صار أولى باللغة من أبنائها غير المنتجين، و إن هؤلاء بعد أن عرفوا العربية ما فكروا في لغاتهم و لا كتبوا بها و لا شعروا و لا تفلسفوا فلم يؤثر عن كثير منهم شيء يذكر في لغاتهم اللهم إلاّ من نقل منهم إلى لغته شيئاً من فكر أو شعر أو ثقافة أو عقيدة أي إلى أبناء قومياتهم ممن لم يحالفهم الحظ في تعلم اللغة العربية.

و من المعهود عن الذي يتعلم لغة ما ثم يدرك كنهها و تستوي شخصيته بها و تكون أحلامه في نومه بها بعد أن يكتب شعر روحه بألفاظها و يتوغل في دقائق العلوم و الأفكار بتراكيبها إنما يستبدل بكيانه السابق كله كياناً آخر؛ فاللغة التي استقطبت مئات ملايين من أبناء الأمم الأخرى في كل زمن رفدوا الثقافة العربية و الحضارة العربية ليست لغة صعبة و ليست لغة تعلمها هؤلاء و أنتجوا لنا نحن العرب ما أنتجوا بالإكراه أو الجبر أو السلطان كما فعل الأتراك أو الفرنسيون أو الغربيون بالتتريك أو بالفرنسة أو

بالعولمة و غيرها من وسائل الإكراه و الجبر؛ و لِمَ نذهب بعيداً إلى التتريك أو الفرنسة، أ لم يقبل على تعلمها المحتلون من أمم غربية جاءت مع الجيوش المتحالفة إلى العراق و هم الآن يتعلمونها في واشنطن و نيويورك و يتكلمون بها بيسر و طلاقة، و لو أُتيح لهم الموقف الأمني أن يندمجوا منذ دخولهم إلى العراق لما احتاجوا الآن بعد هذه السنين إلى مترجمين؛ فهل فُرضت عليهم العربية فرضاً و هم السلطة المحتلة للعراق و هو بلد عربي، فهم مع انزوائهم في ثكناتهم و مرورهم الخاطف الخائف في الشوارع و المدن يلقّطون كلمات عربية و عراقية من اللهجات المحلية و يتشدقون بها، و منهم من يلقف من المترجمين كثيراً من اللغة و يخطف كيفية الكلام بها، و هؤلاء المترجمون كثيراً ما يذكرون إن كثيراً من الجنود الأمريكيين لا نحتاج إلى أن نتكلم معهم بالانجليزية فهم يتبادلون معنا جملاً و تعابير عراقية و عربية، و ما هذا إلاّ للطف هذه اللغة و تغلغلها إلى النفوس برغم الحواجز و الموانع؛ و نذكر نحن العرب و العراقيين المتخرجين في الغرب و نحن نتعلّم لغاتهم كيف يتنّدر بعضنا على بعض؛ لصعوبة إتقانها علينا، و نحن في بيئاتهم، و سهولة تعلّم زملائنا الغربيين لغتنا منا، و سيبتسم من يقرأ هذا، إذا كان قد تخرج في الغرب، فربما كان هو المتندر أو المتندّر عليه؛ و يظل الطالب العربي يفكر بلغته حتى و إن كتب باللغة التي تعلّمها، و سرعان ما ينساها إلاّ إذا ظل على صلة بها يوماً بيوم، على حين يظل زميله الغربي على ما تعلّمه من عربية سنين طوالاً، و لا ينسى وقع ألفاظها و موسيقى تراكيبها. و لو قرأ قارئ ما روته زوج الدكتور طه حسين إذ دُعي يوماً ليلقي بالفرنسية شيئاً يسيراً لوجد و كأنها تروي فتحاً من الفتوح أو كأنَّ الأمر عجبٌ من العجب و كيف أنها خشيت عليه كلَّ الخشية، و كأنّه يصعّد في السماء أو يعرج في الفضاء، و الفضاء بلا هواء ! هذا مع طول بقائه في باريس و صحبته لزميلته الفرنسية التي صارت زوجه و عادت معه و قوة سلطانها عليه و بقائها معه حتى وفاته و مع ذكائه الحاد فضلاً عن أن ما يقرؤه من الفرنسية يسمعه منها بلغتها، و كل هذا لم يغيّر من أسلوبه العربي شيئاً و وصفها له و هو يرتقي منبراً ليلقي شيئاً بالفرنسية دقائق معدودات و كأنه من المواقف الجسام [13] ! لينبيك هذا المثل الحي على سلطان اللغة العربية على النفوس و تغلغلها في بواطن الشعور و مكامن الإبداع من جهة و على صعوبة غيرها، و لم يكن الرجل إلاّ كما لُقّب عميداً للأدب العربي، على حين لم يوصف فؤاد سزگـــين مثلاً أو سفيرٌ غربي في بلد عربي بأنه ارتقى مرتقىً صعباً حينما يحاضر بالعربية أو يلقي بياناً مطوّلاً بها عدا اللّكنة التي لم يتخلّص منها حتى شعراء ما قبل الإسلا م من أبناء الأمم الأخرى أو ما بعد الإسلام كسحيم عبد بني الحسحاس أو بلال المؤذّن أو زياد الأعجم، أو لكنة بعض المستشرقين الذين يتكلمون بالعربية بكل يسر، فهي أمور تتعلّق بأعضاء النطق من عيوب أو نقص في التدريب على نطق بعض الحروف، بل أقرّت قراءات للقرآن لقبائل لم تفارق سمات نطقها رحمةً بهم، لأنهم نشأوا عليها، فاللّكنة لا تعني شيئاً، لأنَّ المهم هو تعلّم اللغة، و الإبداع بها، و تبنّيها بدلاً من لغات أخرى نشأ عليها الإنسان ثم فارقها لقوة لغة أخرى تخرجها عن كونها محض لغة و إنما تكون كياناً أو هوية و هذا هو شأن العربية من بين كل اللغات.

و لا أدري، أخيراً، ما المقصود بـ (الصعوبة) إذ لم تمرَّ هذه الكلمة، مصطلحاً، لها مفهوم علمي محدود في علم اللغة العام، و لا في علوم العربية أو فقه اللغات الأخرى، أ يُقصدُ بها صعوبة النطق بألفاظ العربية ؟؟ و المدرج الصوتي عند بني البشر واحد و الأصوات التي تتألف منها اللغات واحدة عدا أصوات تشتق من الأصوات الرئيسة تتميز بها بعض اللغات من بعض، و عدا التمرين الطبيعي للمتكلم عليها؛ أم يُقصد بها صعوبة تركيب ألفاظها و نحوها، أم يُقصد بها صعوبة دلالتها على الأشياء ؟! و كل هذا منقوض بيسر المقارنة أو الموازنة مع أية لغة يختارها الموازن. و إذا أردت أن تتبيّن مزية هذه اللغة من حيث سهولة تركيب ألفاظها فاقرأ نص أبي حيان التوحيدي في وصفها، قال: ((قد سمعنا لغاتٍ كثيرة و إن لم نستوعبها من جميع الأمم فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية، أعني الفُرَجَ التي في كلماتها، و الفضاء الذي بين حروفها، و المسافة التي بين مخارجها و المعادلة التي نذوقها في أمثلتها، و المساواة التي لا تُجحد في أبنيتها؛ و إن شئت أن تعرف حقيقة هذا القول، و صحة هذا الحكم، فالحظْ عرضَ اللغات التي هو بين أشدّها تلابساً و تداخلاً، و تعاضلاً، و تعسّراً، و تعّوصاً، و إلى ما بعدها، مما هو أسلس حروفاً، و أرق لفظاً، و أخفّ اسماً، و ألطف أوزاناً، و أخضر عياناً، و أحلى مخرجاً، و أحلى منهجاً، و أعلى مدرجاً، و أعدل عدلاً))[14].

الدعوة إلى العاميات، الدعوة إلى إحلال لغات أخرى محل اللغة العربية:

بقاء الأداة دليل على وفائها للحياة، إنها سُنّة الوجود، القانون يبقى ما دام حاسماً في ردع انحراف السلوك، و بقاء الشرع مرهون بهيبته و هو منظم للحياة، التقليد و العُرف يعمّر ما اكتسب احترام المجموع، و اللغة أداة شأنها شأن هذه الأدوات و ما دام فيها الإمكان على البقاء و القدرة على الحياة و الاستمرار و الحدوث فإن هذا دليلاً على صلاحها و وفائها بالحاجات و ليس طول عمرها مدعاةً لتبديلها أو إحلال لهجاتها محلها، و

لا أدري و قد مُحّصت و ابتليت و ثبتت للدهور بما مرّ عليها من استعمار و احتلال و تخريب و عداء، و لم يَبِن منها القصور أ يردّ لها ،أبناؤها بتزيينٍ من أعدائها، جزاءً لإحسانها نكراناً؟ إن استعصاءها على الموت و الفناء نابع مما اعتُمل في ذاتها من سمات، و هو مزيج من حضارة ودين و إبداع و ثقافة و تراث أظلته السماء بمعجزة خالدة محفوظة لم يتهيّأ للغة غيرها في الأرض؛ و لا أدري كيف تموت لغة و ليست هي بالشيء المنفصل عن أهلها و إنما اللغة قدرة ليس لها وجودٌ بعيداً عن وجود الناس لأنها لسان الناس فكيف تموت إن لم يرد هؤلاء الناس أن يميتوا شيئاً منهم من غير شيء إلاّ دعواتٍ ادُعيت على أكبر دليل على حياتهم ألا و هو لغتهم المعمّرة الباقية و إلاّ بقياس خاطئ قاسوه بمن تكلم بها في القرون الأخيرة التي تسمى بالمظلمة، و إن ما أنجز بها في تلك القرون هو المعيار و ما هم إلاّ متخبطون بخطأ إذا تصوروها و قد اتخذت أشكالاً من شعر أو نثر هؤلاء أو خيبتهم و جمودهم؛ و ليس جمود اللغة أو خيبتها إلاّ صورة لجمود مستعمليها؛ ألا يسمعون إلى كلام الجاهليين و قد اختلف عن كلام بني الإسلام، و بان كلام بني الإسلام عن كلام الناس في أيام بني العباس؛ إن القدامى تمسكوا بالفصحى بعد أن أوغلوا في دراستها فبان لهم إمكانها فحرصوا على تجديد شبابها بقوة الأسلوب و بعثه و تجديده و الحفاظ على قوانينها و غض النظر عن جوانبها غير المأهولة و عن نحوٍ لم ينتسب إليها و إنما انتمى إلى المنطق و القياس الأعجم، و عدم العبث بنظامها فلم يهدروا قيماً و لم يثوروا على سنن، بل تحسّروا على ما فاتهم مما لم يفت البداة و الجاهليين، كما تحسّر رأس رواتها أبو عمرو بن العلاء و هو يصغي إلى شعر قديم أنشد بحضرته حتى إذا فرغ قال متحسّرا: ذهب الذين يقولون مثل هذا الكلام، أو قال: لم يبق من يقول مثل هذا !(15) أو كما قال.

إن الأجدر بهؤلاء و هم يدعون إلى العاميات و هي أثواب اللغة البالية و الفقاعات الزائلة أن يتحسسوا عجز أنفسهم فيثوروا عليه لا أن يثوروا على قدراتهم التي عجزوا عن أن يروها، و هي التي أودعها فيهم الآباء؛ فيتحسسوا من العربية ما لم تقع أيديهم عليه، هذا إذا أرادوا بدعواهم هذه خيراً، أما إذا كانوا مدفوعين من قصد عدو للعربية فلا خير في كثير من دعواهم ؛ و لكني أسأل من يدعو إلى عامية و من يدعو إلى لغة أخرى: بأية لغة كتب دعوته أ بالعامية التي يدعو بها أم باللغة التي أرادها بدلاً؟ فما أنصف إذا دعا إلى تغيير لغته بها إذن، إني لأعلم أنه لا يستحق عناء الرد، و لكني أردت تحصيناً لمن قد ينخدع بدعوة تعجز عن أن تدعو لنفسها، و أردت أن أدعو من يظن بمثل هذه الدعوات خيراً أن يدرس النحو جيداً و يزيح عنه غثاءً كثيراً بعد أن يقرأ إبداع لغته طويلاً فأقول:

إن من يدعو إلى اللهجات العامية و يجعل منها بدلاً عن الفصحى أو الفصيحة بحجة أنها لغات محكية إنما هو مسكون باللهجات الأوربية المحلية الإقليمية، و كيف استقلّت عن اللاتينية، و أصبحت لغاتٍ لها كيانات مستقلة و شخصيات متميزة بعد أن كانت لهجات شعبية، فنحت نحو التطور، إنها حجة داحضة فليست اللاتينية كالعربية الفصحى، و لا تصحّ الموازنة بينهما، و ذلك لاختلاف خصائصهما، فالعربية إذ ثبتت لعوامل الفناء لا تقاس بها لغة لم تثبت لما تعرضت له، و عوامل فناء اللاتينية لا تشبه لما تعرضت له العربية و لم يكن في اللاتينية ما كان في العربية، من عوامل بقاء و إثراء، و اللهجات الأوربية غير اللهجات العربية العامية، فضلاً عن إن خصائص العرب تختلف عن خصائص الغرب، و ما تعرّض له العرب من تقسيم إلى بلدان هو مصطنع و ليس طبيعياً لينفرد كل شعب بنفسه و لغته و تراثه و دينه و حضارته، فالعرب المعاصرون مرغمون على أن يكونوا بلداناً متفرقة و لكنهم لا يرغمون على أن يكونوا شعوباً مستقلة لأنهم شعب واحد لهم دين واحد و تراث واحد و حب واحد للإبداع باللغة، و العاميات العربية لا تصلح للإبداع الأدبي الذي يحبه العرب لأنهم إذا نبغ بهم شاعر كان لهم كلهم، فشوقي شاعر العرب، و الجواهري بعده شاعر العرب يدينون له بالتأثير و الإصغاء و التلذّذ، و أمر التقسيم الجغرافي لا يترتب عليه تقسيم قومي أو أدبي أو إبداعي، لأن التقسيم الإبداعي لا يأتي إلاّ بعد خطوب كبرى تتزلزل به الفطر و الطبائع فينساب – لا سمح الله – الانفصال انسياباً حراً قاهراً طبيعياً، و ليس من قرار سياسي أو استعمار خارجي، فإذا انفرد العرب بحدود وهمية فلا يعني هذا أن ينفرد العربي بنفسه ليلاً ليسمع عامياته و لهجاته بما فيها من إبداع لا يتصل بامرئ القيس أو المتنبي و لا يرتبط بلغة القرآن؛ إن العربي ليأنف من أن يستمع إلى إبداع في لهجته لا يطرب له أخوه في بلد عربي آخر؛ أمّا اللهجات الأوربية فلها أسبابها في الانفصال عن اللاتينية، و اللاتينية لها أسبابها الطبيعية في الموت و الفناء، فكل بلد من بلدان أوربا له ظروفه و لا تصحّ الموازنة بين العرب و الغرب؛ فمحافظة علماء العربية خاصة لم تكن من كره في التطور و لا من ميلٍ عن الانفتاح على الثقافات و العلوم فالانفتاح واجب على كل أمة، و كل لغة يريد لها أهلها المواكبة و التنمية، و إنما محافظتهم تنبع من خصوصية الأمة، و هي المحافظة على لغة الكتاب لتتواصل قراءته غضّاً كأنه لمّا يزل يتنزل، و المحافظة على نصوص الشرع و مصادره من التبديل؛ فضلاً عن

خصوصية أخرى للأمة، و هي عشقها للبيان، و قد أعانتهم هذه اللغة بإمكاناتها و أغرتهم قرناً بعد قرن بثرائها و قدرتها على الإبداع الأدبي، و هو أجلى آيات إبداعهم بها، و بعد ذلك يأتي كل إبداع لهم في كل شيء آخر؛ لذلك لا تصحّ الموازنة بين ما حدث للآتينية، و ما هو من المستحيل أن يحدث للعربية من انشطار إلى عاميات؛ بل إنّ عدم انشطارها إلى عاميات من خصائصها، ذلك بأنّ العربي في كل زمان يقرأ حضارته كلها بما فيها من كتاب و تراث و أدب و ثقافة و مواقف يقرؤها غضة حديثة (أي يحدث له منها تأثير مستمر) بلا مترجم، و كأنّ من مضى مع الحاضر بكلماته ونبراته و أساليبه و مشاعره، فيصوغ الحاضر بها مشاعره كما صاغها الماضي فلا يجد عنها منصرفاً أو بدّاً؛ و هذا شأن لا ينفك العربي عنه مهما طال به الزمان؛ فكل لغة تتبدل و تتغير و تندثر بل بيننا لغات محكية كالفرنسية مثلاً يحتاج أبنائها إلى مترجم ليفهم ما كتب نابليون قبل قرن و نصف أو ما كتب بعده قبل أقلّ من قرن إلاّ اللغة العربية التي شذّت عن هذا القانون أو المنطق، و ليس بقاؤها هذا نابعاً من أسباب مدنية أو حضارية معينة؛ ففضلاً عن خصائصها و غناها و مرونتها تهيأ لها الكتاب الكريم و تهيأ لها الدفاع المستمر عنها.

لقد تهيأ لهذه اللغة فضلاً عما تقدم من خصائص تنأى بها عن التشتت و تجعلها تنأى عن النظير، من قبل نزول الكتاب بها بثلاثة قرون أو تزيد ، أنها جمعت العرب على مائدة واحدة و هي مائدة الانتماء القومي بها و ليس بشيء آخر غيرها، و لم يكن لهم من أسباب الاجتماع إلاّها، و لهم يكن لهم من أسباب الحضارة و المدنية كما للأمم الأخرى التي تحيط بهم إلاّ هذه اللغة بما ينجزون لها من بيان يعشقونه خلقةً و فطرة فطرهم الله عليها، فلا يكادون يحسنون إلاّ فنّ القول فتحاموا بها، فتجذرت بهذا الضرب من الفن، و أضاف آخرهم إلى أوّلهم بها من قرائحهم و صفاء بيانهم، فتسلّموها جيلاً من بعد جيل و قرن من بعد قرن، فتشبثت بها القرون فخلدت فيها المعاني و المواقف و الأفكار و لم يفرطوا بها برغم تعدد لهجاتهم التي لا تعدو إبدال أو قلب بعض الحروف لتقاربها أو إلحاق حروف معينة بأواخر الكلمات أو قطع بعض الكلمات قبل تمامها، و كلها فصيح برغم تناثرهم على بيئات شتى و لكنهم إذا تساموا بالخطاب كانت لهم لغتهم الواحدة المشتركة، فليس غريباً أن تكون لهم خصائص معينة لا ترقى رقيّ الانفصال على تقطع ذات بينهم في البوادي في مجاهل الصحاري المترامية و الجبال و سواحل الجزيرة العربية الواسعة، و تقاذفهم بين قوى العالم القديم من روم و فرس و ممالك أخرى، و تضارب معتقداتهم و أديانهم من وثنية و يهودية و نصرانية و حنيفية و تنوع مشاربهم، بل كان يقتل بعضهم بعضاً و يقتفي بعضهم إثر بعض، إذا كان له شيء يسير من أسباب الحياة من ماء أو كلأ أو مال، يتناهبونه حتى لو كان لأخيهم في النسب و الدم[16]؛ و لكنهم برغم هذا كله كانوا يجتمع بعضهم إلى بعض، قاصيهم و دانيهم، بدوهم و حضرهم، على ثاراتهم و أحقادهم في أشهر لهم حرام، يسمع بعضهم بعضاً و يصغي بعضهم إلى ما أنجز بعض من سحر و بيان فيحكم ناقدهم بينهم لعدوه منهم إذا كان محسناً مجيداً و يتواصون بحفظ كل ما يسمعون و يتناشدونه و يتمثلون به فيما بينهم، و فيما بينهم و بين أنفسهم فيكون ما تزوّدوه من أسواقهم هذه زاد العام كله أملاً في عام جديد و سوقٍ جديد فيه إنجازٌ جديد يضيفونه إلى رصيدِ عامٍ مضى؛ بل كانوا يتناسون لهجاتهم ليجتمعوا علىً لهجة واحدة يبنون فيها قصائدهم و روائعهم من خطب و أمثال و قصص و أخبار، فكانت مصحف بيانهم و مجتمع أسماعهم و علة اجتماعهم و تناسي أحقادهم و هي وطنهم الذي لا يعرفون لهم غيره وطناً، و الهوية التي لا يعرفون غيرها هوية، و إذ هم بهذا إذا بكلام الله ينهال عليهم بها، و يتنزل بين ظهرانيهم بكلماتها، و ناهيك ما فيه من سحر و تأثير و بيان و جمال، و إذا الذي عاشوا يتعاهدونه و يتواصون به يكون له شأن و أيّ شأن، و إذا بتواصيهم به و توارثهم له و تناذرهم فيما بينهم لحوطه و حفظه يذكره الباري بكتاب و أيّ كتاب، فلم يذهب ما لم يحسنوا غيره سدىً إذ أنزل الله بها مراميه و صاغها بكلماتهم، فكيف تكون عنايتهم بها و كيف إذا أراد مريد الحطَّ منها أو تبديلها و قد وضع الله لهم موسماً دائماً و سوقاً دائمة قائمة و هو خير المتكلمين بها و خلّد اجتماعهم و أشاد سوقهم البياني فجعل شهورهم الحرام دهراً كاملاً لا أشهراً من كل عام فلم يتهمها أحد منهم بصعوبة أو تخلُّف ، بل فخروا بها على كل خلق الله، و تاهوا على الناس بقوتها و بيانها، كما تتهم الآن من أبنائها أنفسهم ذلك بأن هؤلاء أصغوا إلى ما سُوِل إليهم فوق عجزهم عن الاجتهاد فيها فصُوّرت لهم بهذه الصورة من أنها قديمة أو متخلفة أو صعبة، و كيف تبديلها أو استبدال العامية بها التي هي أدنى و أبناؤها الآن متقاربون في اتصالهم بعضهم ببعض حتى يرى بعضهم بعضاً و يسمع بعضهم خبر بعض و يجمعهم دين واحد و كتاب واحد، و يريد بعض ممن يزعم انتماءه إليهم أنْ يشقّق عليهم لغتهم التي هي مناط وجودهم بين تخطّف المتخطفين و تناهب المتناهبين فإذا كان قديمها الساحر الشاعر الجميل محفوظاً بالحب و الحوط و كونه التراث الذي لم يحسنوا غيره، و لم يكن لهم من تلادٍ سواه، فإن حديثها المعجز خالدٌ بمعجزة الحفظ المطلق لكونه الدين و العقيدة الذي لم يوهبوا خيراً منه من مجد و

ذكر يتواصون بتلاوته و صيانته لأنه الحضارة الإلهية التي وهبهم الله، إذ لم تكن لهم من أسباب الحضارة و المدنية البشرية كما لغيرهم ممن يحيط بهم من أمم، ففيها العلم و الثقافة و الفكر، و فيها، فوق هذا كله ذكرهم و فخرهم على كل أمة إلى آخر الزمان.

نعم حفظها الجاهليون بحفظهم إبداعهم بها لسهولة حفظه بها و أدّوها كاملة أمانة عزيزة على قلوبهم إلى زمن الرسالة، و أوكلوا أمر حفظها إليه خشيةً من أنفسهم عليها من تشتتها على لهجاتٍ لهم، حتى و إن كانت فصيحة، و كأنّ الله بعلمه السابق و مشيئته بإنزال الكتاب بها ألاّ يجتمع العرب على شيء غيرها، فالتقوا على قدر بالقرآن؛ فتكفّل الله بحفظها بتحديه خلقه علّى أن يأتوا بمثل هذا القرآن إلى أخر الزمان بلغته الفصحى فتحدّيه سارٍ ما دام في الأرض خلق، أ تُراه يتحدى من في الأرض بلغة ستموت أو ستنهض عاميتها بدلاً عنها، أو بلغة صعبة متخلّفة تستنزف الوقت و الجهد ؟!

إن محض حفظ الله لكتابه العزيز و سريان تحديه إلى آخر الزمان دلالة كبرى و إيحاء مبين بأن هذه اللغة ضمن لها الباقي البقاء و إن من يؤمن بكتابه فيتلوه و يحفظه و يحفظ ما كتب بها من تراث ليفهم معاني القرآن ملزمٌ بالبقاء عليها إلزام إيمان و هدىً لا إلزام جبرٍ أو إكراه، فلا إكراه في الدين و قد تبيّن الرشدُ من الغي و إن محض دعوة النبي صلى الله عليه و آله و سلم لقراءة القرآن و إن في قراءة حرف واحد منه أجراً[20] وصية و وجوب للبقاء عليها.

و أريد أن أسأل، بعد هذا، أ ثمّة لغةٌ تهيّأ لها ما تهيّأ للعربية من أسباب للبقاء و الخلود؟ فكلما عمرت قرناً ازدادت غنىً و تنوعاً و يُضاف جديد إلى قديم؛ و أسأل أيضاً، أ تهيّأ للغة أن يتكلم بها الله كلاماً معجزاً يتحدى به خلقه جميعاً بأن يأتوا بمثله قرآناً؟ فيتحديه، عز و جلّ، للإنس و الجن جميعاً أن يتعلموها كلهم إلى آخر الزمان ليجدوا ما إذا كان بإمكانهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو ببعضه قرآناً عربياً، بهذه اللغة لا بغيرها.

لهذا الذي تقدم كله أ يكون لمن ينظر إليها على أنها كغيرها من اللغات عذر أو حجة و كل لغات الأرض، الآن، بقايا مستحدثة أو مستأنفة تتطور و تندثر بعد أن تعيش زمناً محدداً لها طال أو قصر ليستولي عليها التشتت و الانقسام إلى لغات و لغات؛ و حتى العولمة التي من أهدافها التنافس على جعل لغة معينة كالانجليزية أو الفرنسية أو الأسبانية لغات عالمية، و حتى هذه العولمة أصبحت أداة للتشتت ذلك بأن هذه الوسيلة إذا كان من أهدافها تثبيت لغة ما و التبشير بها إنما هدفها المنفعة الزائلة مهما كانت هوامش نفعها الكثيرة. لأنّ المنفعة المادية ستتغير و يتغيّر، من ثمّ، النظر إلى عالمية لغة ما لارتباطها بمصادر القوة أو الانتفاع، و هما زائلان قصيرا المدى في تحولات الزمان؛ فالعولمة لا تناهض قوة القرآن لحفظ لغة ما أو عالمية لغة ما لأنه فوق ارتباطه بالباقي هدفه المنفعة الدائمة و الخير النظيف الذي لا تشوبه شائبة متدنية قصيرة المدى ترتبط بالزائل؛ فارتباط اللغة العربية بعالمية القرآن، و مدى المطلق أبقى من ارتباط اللغات الأخرى و هي عولمة البشر، و العربية، إذن، باقية لبقاء من حفظ كتابه بها، و لا يضرّ كسل بعض أبنائها أو عقوقهم، و لا تحتاج كبقية اللغات إلى رفد كثير من أبنائها الذين هم بين داع إلى غيرها، أو ساخر من قدمها، أو الانتماء إليها، لجهله بها، برغم أنها المظلّة الواسعة للثقافة العربية و كونها لب الحضارة و الهوية و العزة القومية، و هي من دون كل اللغات لها سمة ارتباطها بالكتاب العظيم و الدين القويم؛ و لم يترك أمرها للتطور المفضي إلى التشتت و دعوات التغريب و النزعات العامية المغرقة في المحلية، و إنما تهيّأ لها ما يحكم هذا التطور، و لم يكن من مجالٍ، حتى في أحلك عقود التبعية و قرون الاحتلال، أن يتخلّى العرب و الناطقون بها، في قبول لغة أخرى أو عاميات في التأليف و الإبداع و الكتابة في شتى أنواع العلوم و المعرفة و جوانب الحضارة المدوّنة المقيّدة؛ لأن الفصحى و الفصيحة قد اتخذت لها مكاناً أثيراً لا يتزعزع في نفوس الناطقين بها و أذهانهم و هم الآن يزيدون على الثلثمئة مليون، فهمومهم، على كل حال، في وجوب تجديد الأساليب بها و إتقانها و جعلها لغة المعاصرة و المواكبة و تنقيتها من شوائب علقت بها و دفع العقول الفتية إلى النظر في جوانبها الغنية بالوسائل الحديثة في التعليم مع الحفاظ على الثوابت و الجذور ليحملوا روح العصر و تنشيط دور الإعلام، هذا كله مثبوت بين أبنائها و إن كانت اللغة التي يتحدثون بها في أمورهم اليومية هي العامية و لكنهم يستطيعون فهم الفصحى (حتى الأميين منهم) و الكتابة بها و الإبداع و لذلك يترتب على كل من ينطق بها و يفهمها و يكتب بها أن يكون له دور من موقعه في تطويرها و تأكيدها و ليس الإصغاء لدعوات الإرهاب الحضاري و الثقافي المعاصر.

حقّ اللغة و ما على أبنائها من واجب:

البحث عن مزايا اللغة العربية أو تميزها من اللغات، و الخوض في خصائصها و خفايا نظامها، و دراسة بنيتها من صوت و صرف و تركيب، كل هذا وقف عليه علماء اللغات قبل القرن العشرين، إذ تعود دراسة اللغة العربية في أوربا مثلاً إلى القرون الوسطى، لأغراض لاهوتية تبشيرية، و لدراسة العلوم الطبية التي نبغ فيها

كبار الأطباء المسلمين كابن سينا، و لتفهم نصوص العهد القديم تفهماً أعمق و أشمل، و لدراسة علوم أخرى استطاع العرب و المسلمون أن يكونوا بها أساتذة العالم القديم، كالكيمياء و الجغرافيا و الفلك و الرياضيات و الجبر..، حتى القرن التاسع عشر و القرن العشرين من علماء و أساتذة اللغات السامية بأهداف المقارنة و حصر الخصائص من مستشرقين و اختص بدراستها كثيرون منهم، و عملوا في مؤسسات استشراقية و مدارس للغات و الدراسات الشرقية و الأفريقية و مختصو شؤون العرب و الشرق الأوسط بأهداف علمية أو دينية أو سياسية أو تبشيرية دعائية أو إعلامية و لأغراض شتى، قبل علماء اللغة المعاصرين الذين تتلمذوا على العلماء الغربيين و المستشرقين بأساليب البحث المتطورة و المنهجية و الدقة الأكاديمية و أساليب المقارنة الحديثة، بعد أن تعلموا لغات أخرى، بل ازداد الاهتمام الآن بدراسة اللغة العربية و تعلّمها و تدريسها في أمريكا و الغرب و الشرق و استراليا أضعافاً مضاعفة لزيادة الاهتمام بشؤون الشرق الأوسط لأجل الحوار مع الآخر و تعرف الثقافة العربية، فضلاً عمّا هو معروف في عالم السياسة، و لتطور المناهج و أساليب البحث أيضاً، و إن لمن الغفلة أن يُظنَّ أن غيرنا يجهل ما نعلمه من لغتنا، بل إنهم يعلمون منها ما يجهل كثير من العرب و غير العرب الناطقين بالعربية لجهل كثير من أبنائها لغات غيرها و لجهلهم أيضاً بأساليب البحث و مناهجه المتطورة و أساليب المقارنة بين اللغات، و لجهل أبنائها أيضاً اللغات السامية التي وقف عليها المستشرقون منذ القرن الثامن عشر فضلاً عن إن غيرنا يعلم عيوب لغات أخرى و كذلك يعلمون عيوب لغاتهم، كعلماء العرب القدامى فإنهم إنما برعوا في التنظير لمزايا العربية و خدموها و وقفوا على خصائصها و سنن العرب في كلامها و ألفوا معجماتهم العامة و الخاصة لجمعها و كتبوا في مقاييسها و حلّلوا بنيتها و قعّدوا في نحوها و صرفها و حللوا أصواتها و أحبوها أكثر من أبنائها ذلك لوقوفهم على لغات أخرى و لأنهم من لغات أخرى نشأوا بها ثم فارقوها إلى العربية، فعرفوا الفرق بينها و بين ما يعلمون من لغات من عيوب و قصور؛ و إن من الغفلة، أيضاً، أن يُظنَّ أن علماء اللغات من الغربيين و غيرهم ممن تعلّم العربية أو درسها و درّسها لا يقدّرون عظمتها و تميزها و صلاحها للعالمية و أحقّيتها بالانتشار و مواكبة التطور و الإبداع من بين اللغات المتميزة الحية الأخرى، بل إن كثيراً منهم لمن المنصفين لما هم عليه من الخبرة و النظر الأكاديمي المستقل.

و لكنّ ثمة من يفيد من البحث اللغوي أو قد يستخدم عقول بعض أبناء العربية فيوجه البحث في أمور الهوية العربية إلى ما يسيء إليها لهدف ديني أو تبشيري معاصر أو سياسي معادٍ – كما كانت الشعوبية من قبل – للنيل من التراث و الدين أو لتعصب للغات أخرى يسوؤها انتشار العربية فتستنبط بالبحث اللغوي العام و نتائجه ما ينفّر أو يشوّه.

و لذلك لا أقف – هنا – موقف المعرّف باللغة و لا بمزاياها أو نظامها مما قد يبتعد عن هدف هذه الأوراق و هو الدفاع و التنبيه، فربما ظنّ من أوجه إليه التنبيه إذا عرّج البحث على التجريد: إنه أمر علمي يخصّ المختبرات و قاعات الدرس الأكاديمي ! و أنا أريد أن أبيّن لطلاب أكاديميين و رجال سياسة في مؤسسات القرار الوطني الذين يهمهم أمر العربية، إن كثيراً منهم قد يغفل خطورة العداء الحضاري الذي يحيق بالهوية و منابع عزة العرب و حضارتهم و مصادر فخرهم، لذلك أريد لهذه الأوراق أن توفّي بهدفها و هو الدفاع عن اللغة و تنبيه أبنائها إلى ما يراد للغتهم من تقسيم و تبديل و هوامش أخرى كالتنفير منها و بخسها فضلها فأقول: إن ما تدعو إليه مؤسسات خفية أو معلنة و هدفه القرآن و اللغة لغرض النفوذ بالعولمة و للعالمية للغة أخرى، أجده ضعيفاً إزاء إهمال العرب لغتهم من جهة و الانتماء إلى لغات أخرى بقصد المعاصرة و الحداثة و تجديد القديم الذي يسحرون به من ليس لهم قلوب أو أحلام بحجة التطور و دعوات من مثل موت اللغة و إنها جثة هامدة أو قصور الدين عن معالجات معاصرة و إنه خاص بعصر الدعوة، و أن الغرب قد تطور حينما أزاح الدين؛ و ينسون الفرق بين التطور الغربي و التحضّر الذي لا يعني التطور إلاّ بهامشٍ بسيط من هوامش تيسير الحياة من مواصلات وسرعة، فالتحضّر لا يعني أن نقتل البشرية كلها بلحظات بقنبلة هيدروجينية أو نووية أو وسائل تسلّح حديثة، لأن الغفلة عن مفهوم التطور و الفرق بينه و بين مفهوم التحضّر معضلة و فخ، انهار به كثيرون، لأنّ التحضّر بأبسط معانيه هو الإنسانية المرتبطة بتوجيه السماء لا المرتبطة بتوجيهات من ادعوا أنهم يمثلون السماء، و السماء منهم براء؛ و إن الدين قرين الفطرة و لا يدخل فيه ما ليس منه، و لا يعلمنا الأعاجم أصول ديننا و لغتنا و قرآننا إذا كانوا مستعمرين. إن مثل هؤلاء العرب المخدوعين هم الأعاجم و ليس الأعاجم من تعلموا العربية و أتقنوها و أجادوا فيها فصاروا عرباً على قاعدة الرسول الأعظم: من تكلّم العربية فهو عربي. إن عرب اليوم ممن يسخر من لغته لا مكان لآرائه في أسماعنا و ليسوا هم من الدين و القومية و العقيدة في شيء؛ فما ربح العربية من أجساد لا معنى لها إلاّ التنفير من لغةٍ هي الهوية، بغضاً لها و نبذاً؛ إنّ السبب في نمو مثل هذه الدعوات و تكررها و تجددها منذ القرن التاسع عشر في مصر أو لبنان أو غيرهما من

بلدان العرب إننا لا نواجهها مواجهة جادة من مؤسسات وطنية و علمية و أكاديمية و دستورية؛ إنها تحتاج من مؤسساتنا التربوية و الأكاديمية و من دستورنا و مؤسسات القرار السياسي إلى إنشاء مراكز للبحث فتدرس، كما تدرس الأمراض و تخترع لاستئصالها وسائل تطعيم و أمصال الاستئصال، كما يلاحق الجدري و الملاريا و الهيضة و السل و الحصبة في بيئاتنا، لأن دعواتهم هذه أشد فتكاً من هذه الأوبئة، و حسب الوطن العربي تقسيماً ليقسّم تقسيماً آخر أقسى من التقسيم الجغرافي أن يقسّم على لهجات عامية محلية تتعاوج في الألسنة و تتمايل تمايل السكارى في ليل مظلم لا تهتدي إلى أبواب بيوتها، و هذا هو عين ما يظهر في بعض القنوات حين يُتعمّد الخطأ حينما تقاد بألسنتهم الفصحى أو الفصيحة و تُهان بما أعوّج من ألسنة و تنهال علينا العاميات اللبنانية أو المصرية أو الخليجية و غيرها و تتقافز المفردات الأجنبية من كل لغة و تتلّوى و تمطّ و تطوّح بما يُنكره اللبنانيون و المصريون و غيرهم من لهجاتهم بلا هدف تواصل أو تفاهم إلاّ لجلد العربية بهذه السياط. و هؤلاء هم الانجليز منقبضون مما يفعله الأمريكيون بلغتهم حين طوّحوها بعيداً عن أصول نطقها و قوانين تركيبها بحجّة السرعة و اختصار الزمن باستعمال الأسماء و هجر الأفعال فاقتصر الكلام بأداء الغرض أو الإفهام بشكل عام في الشوارع و مراكز التجارة و الأمكنة العامة و صالات القرار السياسي و نشرات الأخبار الموجزة، و انحصرت في قاعات الدرس الأكاديمي الخاص بها، و بيئات الإبداع.

إن على حكوماتنا العربية و الإسلامية اتخاذ مواقف حازمة للحفاظ على هويتها و دينها بحوطها اللغة العربية كما حاطها العرب و من نطق بها، أكثر مما تتخذه الآن، و هو كثير، و لكنه ليس بحجم التهديد المعاصر، و أن لا يُكتفى بعقد المؤتمرات أو التوجيه المجرد بل بإنشاء مؤسسات مخلصة في كل بلد عربي و بلدٍ إسلامي و بلدٍ ينطق بالعربية من جامعات و مجامع لغوية و لا يقتصر أمر المجامع على مصر و سورية و الأردن و العراق و المغرب، و لا يقتصر أمر تعريب العلم على الجامعة السورية التي ترجم رجالها مصطلحات النبات و الحيوان و الهندسة و علوم الأحياء و علوم طبقات الأرض و علم النفس و التربية و الفلسفة و الطب و الكيمياء و الفيزياء و الرياضيات... و قد قام بهذا أو قريب منه محمد علي باشا في القرن التاسع عشر ليس بقصد التعريب فقط و إنما لنقل العلوم من الغرب؛ و أن تُدرّس اللغات الحية الأخرى و علومها بأصولها أيضاً منذ الدراسة الأولى ليتعرف العرب لغات أخرى مع لغتهم ليقفوا على خصائص العربية بعد أن يقفوا على خصائص اللغات الأخرى ليكونوا كالعلماء القدامى أو كثير منهم ممن لهم العلم بالعربية كما لهم العلم بلغة أخرى فأنصفوا العربية و أنصفوا اللغات الأخرى بدرسهم الأصيل. إنّ على السلطات العليا تحري أمن العربية كما يُتحرّى أمن البلدان تماماً بالتحقق من نوايا الإعلام المضاد إذا كانت تصدر عن صراع ديني أو حضاري أو عداء ثقافي و ينبغي أن تستبعد مكاتب فضائيات مغرضة من البلدان العربية و الإسلامية، أما الفضائيات التي تخلو من الغرض فينبغي أن توجّه إلى إجادة مذيعيها العربية و إتقانها و تحري الأوجه الجميلة المحبّبة للغة، و أن تكون الفصيحة هي السائدة في برامج الحوار و البرامج الثقافية و العلمية، و أن يكون أداء مذيعيها في البرامج التي تذاع باللهجات العامية مقتصداً بعيداً عن التلوي الذي يبعد العامية نفسها عن نفسها؛ و أن تُخصص برامج أو فقرات تكون بمثابة التوجيه الصحيح لاستعمال الفصيحة، و استبعاد برامج الشعر النبطي من قنوات الإعلام لأن مكانها، إن استحبها أهل الخليج، في بيوت الشعر الشعبي أو نوادي الشعر المحلي، و أن يتسلّم أمر الإعلام أو الظهور للناس أساتذة بالإلقاء الذين يكسبون العربية رونقها و يحبّبونها إلى السامعين كمذيعي و مذيعات صوت العرب و مذيعي كثير من برامج إذاعة الكويت كالمبدع الخبير أحمد سالم، بفتح دورات تدريبية تدرّس فن الإلقاء و الإنشاد و يشرف عليها أساتذة مختصون و دعمها و إشاعة برامج إذاعية متميزة في القنوات التي هي أكثر استقطاباً كالفضائيات و وسائل الإعلام المحلية كبرامج أسّست في إذاعة الكويت اذكر منها (عالم غريب) صباحاً، و لما تزل (نافذة على التاريخ) و (أخبار جهينة) و (نجوم القمة) عصراً، و (الموسوعة الفقهية) ظهراً فهي بمثابة الدعوة إلى جمال العربية و قوتها، و ما تقوم به قناة الشارقة الفضائية التي تحرص في أغلب أيام الأسبوع على برامج تتقرى أسرار الإبداع البياني للقرآن مثل برنامج (لمسات بيانية) مثل مشرق يجب أن يحتذى يقوم به مبدعون موجهون مثل أستاذنا الدكتور فاضل صالح السامرائي و كثير في العربية مثله، علماً و إخلاصاً، من مسلمين و مسيحيين؛ لأنها لكل من أخلص للهوية و أحبها، و لم تكن مقصورة على العرب أو على المسلمين، و ما إبراهيم اليازجي مؤلف (**لغة الجرائد**)، أو بطرس البستاني مؤلف **(محيط المحيط**)، أو الأب أنستاس الكرملي و جهوده و تحقيقاته و تصويباته أو غيرهم عنا ببعيد.

إن على محاور القرار العربي و الإسلامي أن توجّه إلى المؤسسات الغربية ذات العلاقة بأيدلوجيات تعادي العربية دعوات لموائد متحضّرة بكل الطرق المعتمدة، ليقرب أهل العربية و الإسلام بالحوار الحضاري من فهم تراث الغرب و ثقافاتهم فتكون كلها بمستوى النظر و الدرس

باستغلال سبل العولمة الإيجابية لتبادل المعرفة و المعلومات، فالعالم كله الآن في زمن من المعلوماتية و تداخل التجارب ليسر التواصل؛ و ينبغي أن يُستغّل هذا اليُسر لغير تغذية الإرهاب الثقافي؛ لأن التراشق بالأيدلوجيات و التنافس غير الشريف على قلوب الشباب العربي و الغربي و البحث في عيوب الأديان و اللغات و الثقافات لا يثمر إلاّ فساداً و لا يُظهر إلاّ الوجوه السود لكل الحضارات؛ فينبغي أن تعلم بعض المؤسسات الغربية أن ليس ثمّة نصوعٌ مطلق. و إني أرى أن تكون في كل بلد عربي وزارة للغة العربية و شؤونها؛ فليست هي أقل شأناً من شؤون أخرى لها وزارات كحقوق الإنسان و الحوار و السد عالي في مصر مثلاً.

أما ما على المجاميع العلمية و اللغوية فوق ما تقوم به من التعريب و المعجمية و التحقيق و التصحيح و متابعة الجديد أن تتبنّى الباحثين بعلوم اللغة العربية كافة و تتابع ثمراتهم في مستوياتهم كافة و لا تتجنّب البحث في الآداب و دراساتها النقدية فالبحث الأدبي و النقدي دعم للإبداع بهذه اللغة، و قد كاد هذا الجانب المهم ينحسر و تستولي على الأدب العربي الاتجاهات الأجنبية في الإبداع و هذا الاستيلاء استعمار خفي آخر يدعو إلى تهوين شأنها لذلك على المجامع متابعة هذا الجانب و عدم إغفاله بل دعوة النقد الأدبي العربي إلى أن يكون عربياً في استلهام الجهد العربي الأسلوبي المنهجي الذي سبق النقد الغربي و لاسيما جهود الشيخ عبد القاهر و القرطاجني و ليكون فيصلاً عربياً على هذا الاتجاهات، و ألاّ تنزوي تفاصيل الإبداع في الاتحادات الأدبية و الشعرية و القصصية و بيوت الشعر، و أن تنظر المجامع إلى هذه الاتحادات بنظرة جادة لحملها أمانة الإبداع عبر أجيال القرن العشرين؛ و أن لا تستجيب هذه المجامع لضغط المعاصرة و دعاوى التيسير فتمرّر، من خلال شرعية المجامع ألفاظ و تراكيب و استعمالات، شاعت في المعجم الوسيط يرقى إليها النقد و لا تثبت للدرس اللغوي الصحيح بحجة السيرورة، و كمال البيان بها، و في العربية متّسع و غنىً عنها؛ و أن تكون هذه المجامع مستقلّة في إصدار القرار اللغوي الخاص بسلامة اللغة و الحفاظ عليها و تنميتها و الدعاية لها و مراقبة الإعلام في المكتوب و المذاع و المترجم أنّى كان مصدره.

أما ما على وزارات التعليم العالي و مؤسسات البعثات أن تبسط أيديها لطلاب علوم اللغة العربية و علوم اللغة عموماً للتزود من الخبرات العالمية في مجالات المقارنة و دراسة أصول اللغات الحية و طرائق تدريسها و اكتساب المهارات في تحقيق التراث و تعلّم كيفيات البحث بمهنية و احتراف و اكتساب التوجيه و التدريب الذي يدرب العقول و الأيدي و تعلّم المناهج الحديثة المتطورة و إدارة المختبرات الصوتية و تعرف الجديد فيها لتعود هذه الخبرات في الترجمة و التحقيق و صناعة المعجم و التآليف و إعادة النظر في التراث برؤية معاصرة و دراسة النصوص برؤى حديثة و مناهج تطورت كثيراً منذ بداية القرن العشرين كما عاد إلى الوطن أعلامنا منذ عهد محمد علي و مروراً بالدكتور طه حسين و زكي مبارك و غيرهم في مصر و الدكاترة مصطفى جواد و البصير و الطاهر و المطلبي و عناد غزوان و مئات آخرون غيرهم من أبناء سورية و لبنان فألّفوا و كتبوا و حققوا التراث و صنعوا المعاجم و علّموا تراث العالم و قارنوا و زوّدوا العرب بلغات حيّة أخرى من حيث مزاياها و ثقافاتها و علومها و إبداعها و تعلّموا العربية بعد أن تعلّموا غيرها و نظروا إليها بصورة أكثر اتساعاً و عمقاً. و ألاّ تكتفي الوزارات بالبعثات لطلاب العلوم الصرفة بحجة إن العرب أعلم بلغتهم أو إن البلدان العربية تحتاج إلى الطب و الكيمياء و الفيزياء و الهندسة.. أكثر من حاجتها إلى اللغة، و هذه حجة من لا يبصر أو حجة القائمين على أمور البعثات و أكثرهم من تخصص بالعلوم الصرفة، أو إنهم لا يعلمون من أمر أهمية اللغة عامة و أهمية العربية خاصة شيئاً كثيراً، أو أكثرهم لا يطلع على الإحصاءات التي تخص الإنفاق العالمي على اللغات و علومها إذ يصل الإنفاق على اللغة الفرنسية مثلاً و تعليمها و البحث فيها إلى أكثر من نصف ميزانيات العالم العربي الآن، أما قبل الآن أي في بدايات القرن العشرين فقد وصلت تكاليف فَرْنَسَة شمال أفريقيا فقط إلى أضعاف تكاليف الإنفاق على الجيوش الفرنسية في الداخل و الخارج، أما إذا أراد القائمون على أمور البعثات معرفة سبب هذا الاهتمام فليطّلعوا بأنفسهم على أضعاف هذا الاهتمام في بلدان أخرى أكثر تطوراً من فرنسا كأمريكا مثلاً من ملحقياتها الثقافية المنتشرة في العالم و مشاريعها و القائمين عليها و هي على عكس ملحقياتنا الثقافية و لاسيما في العراق، إذ كان عليها رجال سياسة و استخبارات لا شأن لهم بالثقافة و اللغة و لا علومها، و ملحقياتنا الثقافية مشغولة بأمور أخر غير الاهتمام باللغة العربية وسبل العناية بها.

إن على وزارات التعليم العالي أن تجدّ في فتح مؤسسات للترجمة و التعريب تتقرى الدقة و تتحرى السهولة في نشر اللغة و ترجمة ما مكتوب بها، و أن يكون لها في كل مفاصلها الفاعلة مستشارون لهم مكاتب خاصة و تتقرى أفضلهم خبراء للأسلوب و المخاطبات و متابعة شؤون اللغة و أن توجّههم أيضاً في مؤسسات الدولة كافة ليكونوا خبراء في مراقبة القوانين و الدساتير و عدم جعلهم حلقات مهملة أو هامشية بل الحلقة

المهمة في استصدار الصورة الأنصع و الأسهل و أن يكونوا في الجامعات ثوابت مهمة تابعين بعملهم إليها.

و أن تفتح كليات للغة العربية على غرار كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر، و كليات للدراسات اللغوية القرآنية بعيداً عن استغلال اللغة و القرآن للجوانب الفكرية أو العقائدية و تنصب على لغة القرآن و أساليبه المعجزة و نظامه و دلالاته و مكامن إعجازه التي ينبغي أن تُنقل إلى الغرب ليشاركنا في قيمة إعجازه و ألاّ يُترك أمر القرآن و إعجازه و لغته إلى مؤسسات الاستشراق الألماني و غيره من المؤسسات الغربية التي اهتمت به و بلغته و أساليبه، و أن يُعاد فتح مؤسسات الاستشراق في بغداد و غيرها من مدن العالم العربي فقد أُغلق مركز للاستشراق الألمان ي في بغداد و ينبغي أن يُعاد افتتاحه ليستفيد الباحثون العراقيون منه و من المخطوطات التي فيه و تحقيقها. و أن تفتح كليات للنقد الأدبي و الجمالي لدراسة المناهج الحديثة و تعرّف المدارس المتطورة فيه لتنمية المواهب و الإبداع الذي كاد يجف الآن في الوطن العربي قياساً على ما كان في بدايات القرن العشرين حينما اتصل العرب بالغرب بالترجمة و الوقوف على الجديد في أدب الغرب و نقدهم و فلسفاتهم للجمال و الإبداع.

و أن يكون في كل جامعة مركز استشاري يتألف من خيرة أساتذة اللغة العربية و علومها لا ما هو موجود الآن من موظفين من حملة شهادات أولية تصحح بعض الكتب الرسمية، يقوم هذا المركز على الحفاظ على اللغة العربية في المخاطبات الرسمية و المحاضر الجامعية و الإعلام للغة و متابعة المناهج و تجديدها و مراقبة المطبوع و المنشور في المجلات الجامعية المحكّمة و المؤتمرات.

و أن تعقد مؤتمرات دورية خاصة بعلوم اللغة العربية و دراستها و مجالات الإبداع بها لدفع التآليف في هذا الشأن.

و أن يكون ((يوم اللغة العربية)) أو يوم الضاد فاعلاً ينأى عن كونه احتفالاً لإلقاء الكلمات الفارغة بل يكون يوماً للبحث و الإبداع و التكريم.

و أن توجّه أقسام اللغة العربية بإقامة ندوات للنقد و مواسم الشعر و عقد حلقات دراسية جادة موسمية أو متقاربة شهرية.

و أن يكون الإنفاق على البحث عموماً و البحث في اللغة و دراستها خصوصاً غير محدود، فيكفي أن يُعلم أن الإنفاق على الأبحاث في إسرائيل يعدل أربعة أضعاف ميزانية الدول العربية برمتها !!

أما ما على الأقسام العلمية للغة العربية فهو تطوير مناهجها عقب كل دورة تخرجها لاقتراح الجديد باستمرار، و أن تراقب العمل العلمي مراقبة جادة في اكتساب الجديد و اقتراح البعثات و الزيارات لتدريسييها لاكتساب الخبرة و الرؤية المتطورة و لطلابها لجلب اللغات، و أن تُفصل هذه الأقسا م على أساس قسمين الأول للدراسات الأولية و الثاني للدراسات العليا مع فرع لتدريس اللغة العربية لغير المختصين، و أن تقترح إضافة سنة تدريس لغة عربية لكل الأقسام و الكليات على غرار ما كان في جامعات مصر كي لا يحتجّ المخطئون في استعمال اللغة العربية في كليات العلوم و كليات العلوم الإنسانية الأخرى بأنهم لم يدرسوا العربية و لم يكن هذا الاعتذار في صدر القرن العشرين أو وسطه أو حتى ثلثه الأخير كما هو اليوم.

إن أقسام اللغة العربية، و في العراق خاصة، بعد حروب الخليج منذ نهاية السبعينات فقيرة و تعمل على خبرات الذين بُعثوا في الأربعينات و الخمسينات و قد انقطع أمر البعثات إلى الغرب في الستينات إلاّ نادراً و اقتصر على مصر؛ فالأقسام بها حاجة إلى استئناف البعثات للطلاب في الدرس العالي في الأقل، و لحملة الشهادات العليا لتطوير الملاكات التدريسية و للتزود من اللغات الأخرى و المناهج الحديثة في الدرس في مستوياته كافة؛ فالأجيال التي بُعثت في منتصف القرن العشرين و ما بعد ذلك بقليل قامت بمهمتها و لم يبق منهم إلاّ القليل، و هذا القليل أثّرت فيه الحروب المتلاحقة و الحصار الثقافي و ضغط السياسة تأثيراً بالغاً، فمنهم من بقي يعاني قلة الرواتب و الأجور، و منهم من لجأ إلى دول أخرى و مات في الغربة، و من بقي الآن لا يستطيع وصل ما انقطع، و لا يؤلف مع من هم مثله أمراً ذا بال في النهوض بمستوى تدريس علوم العربية؛ أما من يدرس الآن لنيل الماجستير أو الدكتوراه فلم يكن بمثل مستوى طالب السبعينات الذي كان من العشرة الأوائل بحسب قوانين الترشيح للدراسات العليا آنذاك. فالباب قد فُتح على مصراعيه في نهايات الثمانينات لمن كان معدل نجاحه 75% ثم نزل في نهايات التسعينات إلى 65% و بعدها إلى 60% و مع هؤلاء كان الموظفون المتميزون الذين هم متميزون بمعايير غير علمية و معدله أقل من 60%، و فوق هذا ليس لهم أدنى معرفة بلغة أخرى، فإذا تخرّج في الدراسات العليا و حصل على شهادة الماجستير أو الدكتوراه فخبرته محدودة لعدم اطلاعه على أية لغة حيّة الآن أو لغة ميتة و لم يطلع على ما يدور من تقدم و تطور في الدرس اللغوي من مناهج و سبل و تقنيات و رؤى، أما المحقّقون فلم يبق منهم الآن إلاّ بعدد أصابع اليد، و هم يعانون صعوبة النشر و سرقة الحقوق و ندرة المخطوطات و قلة الأجهزة و المواد الحديثة و تكلفهم أجور الطبع و النشر و أجور التصحيح مع الضعف و المرض و

الشيخوخة، أما تلاميذهم فأغلب ما يفعلونه إعادة التحقيق بعد الحصول على مخطوطات غير التي حُقق المخطوط الأول عليها أو يعيدون المحقق نشراً لا أكثر و ليس في أيديهم خبرة أساتذتهم في قراءة الخطوط و تمييز المخطوطات و الحرص و الجلد على معاناة هذا العمل العظيم المثمر الشاق، و ليس لهم علاقات أساتذتهم الواسعة بالمستشرقين و مراكز حفظ المخطوطات العربية و غيرها، فضلاً عن إهمال المؤسسات الأكاديمية هذا الجانب و إغفالها أولئك المجاهدين و عدم ذكرهم أو احتوائهم أو الإشادة بأعمالهم؛ و كان ينبغي أن تكون لهم حقوق و أن تُبنى بهم مؤسسات تحقيق مهمة ليكون العمل مستقلاً متميّزاً بهم، و كان ينبغي أن تؤخذ آراؤهم في الاتصال بمؤسسات الاستشراق و مراكز المخطوطات العربية في العالم لجذب التراث القديم تصويراً أو استنساخاً أو شراءً أو غير ذلك و ذلك بدفع مراكز الأبحاث المتصلة بالجامعات لهذا الغرض.

أما صُنّاع المعجم فتناثروا على العمل الجامعي الإداري و التدريس و لم يهتم بهم أحد بإيفادٍ أو بعثة تعيد إليهم نشاطهم ليطّلعوا على آخر تطور في هذا العلم المثمر العظيم، و إنما اقتصر أمر السفر و الإيفاد على الإداريين إلاّ نادراً ممن يعتمدهم الإداريون في زيارات خاطفة لحضور الاحتفالات أو المؤتمرات أو بعض الدورات الإدارية.

أما النقاد، و النقد كما هو معروف، علم غربي تعلّمه الموفدون إلى الجامعات الغربية أو النقاد الأوائل و الأدباء الذين ترجموا النتاج النقدي و الفلسفي الغربي فهم، كما يقول الناقد القديم: أعزّ من الكبريت الأحمر، و يكاد يكون الدرس الأدبي في أقسامنا العلمية متوقفاً على دراسة عصور الأدب العربي من جاهلي و إسلامي و عباسي و معاصر بدراسة حياة الشاعر و تحفيظ الطلاب شيئاً من شعره، و إملاء خصائصه الفنية من دون درس نقدي حقيقي يدرس مستويات اللغة الدلالية أو التركيبية يرفده تدريس مادة النحو و الصرف و علوم البلاغة ليقع بيد الطالب أمر فهم اللغة و الإبداع بها وقوعاً مكيناً، اللهم إلاّ إذا كان في القسم ناقد واحد أو أستاذ تخرج في جامعات الغرب و اطلع على مدارس النقد الحديثة و اتجاهاتها و مصطلحاتها و تياراتها و لديه معرفة بلغة أخرى، و هذا لا يسدّ الرمق لندرته، فكيف إذا خلا القسم العلمي من هذا الناقد الواحد كيف يكون أمر تذوّق الإبداع في اللغة و الوقوف على أسرار تميزها و أسرار دلالاتها؟!

لقد ارتبط النقد الحديث بعلم اللغة العام و ما تطور من مناهج وصفية حديثة تقف على اللغات و تصفها و تفسّر ظواهرها و تقدّمها عبر موشور يحلّل طيفها و مستوياتها الدقيقة و تطور على أساس علم اللغة علم الإشارة أو السيميائيات و الدرس الألسني و الدرس الأسلوبي الذي طوّر علوم البلاغة القديمة، و نشأ على أساس تطور علم اللغة، النقد الأدبي الحديث الذي على أساسه تقدمت مستويات الإبداع في الشعر و القصة و التأليف الحديث، و تقدم على أساس علم اللغة العام كل جديد في علوم الحاسبات و منظومات المعلومات و البرمجة و تلقيم نظم الأقمار الصناعية بالشفرات و العلامات و هي من نتائج السيميائيات، و أيضاً تطور علم التأويل أو الهرمنيوطيقا و توغل في فهم النصوص البشرية و الإلهية فهماً جديداً حديثاً مثمراً، على حين بقي درس النقد الحديث في أقسام اللغة العربية على تدريس ما يسمّى بمدارس النقد القديمة من انطباعية و تاريخية و نفسية و هي ليست من النقد في شيء و إنما النقد دراسة اللغة التي حوّلها الإبداع إلى دلالات لا تنتهي و يعين الناقد في دراسته للغة موهبته في التحليل و ليس شرح النص أو شرح القصيدة أو معنى الجملة و هذه الموهبة مصقولة بتمكن الناقد من علم النحو و علم الصرف و علوم اللغة ليقف إزاء النص وقوفاً متمكناً يستطيع به أن يرى اللغة و هي تنتقل من المستوى المعجمي العام إلى المستوى الدلالي الخاص المؤثر و المعجز؛ و لكن الذي يحدث الآن إن النص يُشرح شرحاً بصورة لا تسّر إلاّ الشامتين، و لا أكتم سِرّاً إذا قلت إن طالب القسم العلمي للغة العربية لا يختلف عن أي فرد مثله ممن لم ير جامعة أو كلية إلاّ القليل الذين تثقفوا بموهبتهم و حرصهم و اطلاعهم و هم بنسبة واحد إلى المئة لقدم المناهج و مآل أمر تجديدها إلى هيأة اسمها الهيأة القطاعية مؤلفة من رؤساء الأقسام، و لضعف التدريس في مواد النحو و الصرف و البلاغة و تشتته و شغل الطالب بالعطل و الاحتفالات و قضايا الأمن و السياسة و كثرة الغياب و ثقته بالنجاح بالدور الثاني أو الثالث أو الرابع و إعادة المرقنة قيودهم مرة أخرى مهما كانت الأسباب و اهتمام الجامعات بالحضور و الغياب و عدم برمجة أمور الدوام على أساس علمي أو نظام الكورسات، و إنما على نظام السنة الدراسية كالدوام الثانوي و الابتدائي و هجران الطلبة للمكتبات و الاطلاع، و هذا كله يعود أيضاً إلى قلّة المختصّين و غياب المهارات و الخبرات عن أكثر الذين يقومون بأمور التدريس ممن لا يملكون موهبة تحبيب العربية إلى الطلبة و الكثرة، الآن، تنتظر الأساس الصحيح للبعثات و الإيفادات الطويلة الأمد، و الأساس الصحيح هو إرساؤها على تخطيط علمي مستقل و بأعداد كبيرة و إنفاق غير محدود و إلى بلدان تتوافر فيها العدالة و الإنصاف.

و لا أظن أمر هذا الإرساء العلمي المبرمج المحسوب قريباً فقد كان مبنياً قبل سقوط

النظام على الحزبية و المخابراتية، إلاّ من حمل حقيبته على نفقته الخاصة. و لم تتغير الأمور الآن لواقع البلاد الأمني و قضايا سياسية معروفة.

و إني لأعلم إننا إذ ندافع عن لغتنا مقصرون في تعليمها و تعلمها و نشرها و تنميتها، و كأننا و من يهاجمها سواء؛ فثمة من يعتذر عن أصحاب القرار بأن لهم همومهم في إدارة البلاد؛ و قد يكون هذا عذراً لأن للجانب السياسي أهميته، و لكن لا ينهض عذراً مع إهمال لتهديد واقع؛ فمع هموم السياسة يجب أن يكون همّ الحفاظ على الهوية و خصوصيات الأمة لقطع الطريق على المصالح المعادية للغة أن تبطش بهذه الهوية و تستولي على قلوب الناشئة؛ فيجب أن يكون هذا الهم مستقلاً و واضحاً لا يزاحمه همٌّ آخر، فما تقدم وفاءً بجزء بسيط بحق اللغة العظيمة و فضلها لأنها ما تبقى لنا من عزّة. فيجب أن يكون لهذا الجانب وجود حتى إذا استقرت تفاصيل الواقع السياسي أنفذنا ما فكرنا به و اقترحناه؛ و ما نقوم به الآن ينبغي أن يُستغلّ لمصلحة اللغة لا أن يُترك أمر التقدم الهائل في مجال الإعلام و الاتصال بلا استغلال لمصلحة الأمور العليا للأمة، و التقصير بعلم أو بغير علم في جنب هذه اللغة العظيمة يجب أن يُتفادى و إلاّ فسيكون الأمر عزيزاً على الإصلاح، فشؤون التطور لا تتوقف و هي ماضية أبداً، فمع هذه السرعة يكون التقصير هو الهلاك؛ فإهمال أمر الإعلام و أمر فضائيات تتذرع بحجج التطور و السرعة و دسّ الأغراض أمر لا يُغتفر و ينبغي أن تكون هذه الفضائيات متهمة و لا تُترك لتحتمي بحقوق الإعلام و الديمقراطية، فلا حقوق للإعلام و لا لشيء آخر مع ضياع حقوق اللغة.

فليس ثمة عذر لمن يخطئ باللغة أو يقصّر في استعمالها و يلقي اللوم على اللغة و يدعو إلى استبدالها بالعاميات بحجة أنها لغات محكيّة، فهل يعلم أنّ كل لغات العالم فيها العامية و فيها الرسمية، أي المحلي و العامّي؛ و أسأل: هل إذا كتب كتاباً أو ألقى محاضرة أو تكلم مع أجنبي يحسن العربية أ يتكلم معه بالعامية أو يكتب كتابه بالعامية؟؟ لأنها لغة محكية؟؟! و هل إذا تكلم مع أي عربي، أ يتكلم بعاميته أو بعامية ذلك العربي؟! و أظل أسأل: إذا سادت عامية العراق فبأيّها يكتب و يذيع الأنباء أ بعامية أهل الموصل أم بعامية أهل بغداد، أم بعامية أهل الأهوار؛ و إذا سادت العامية كيف يفهم غيرنا كلامنا و ما نكتبه؟ و هل رأى أحدٌ أنّ مسيحياً أو يهودياً من العرب قرأ العهدين بالعاميات؟؟ و كيف إذا غيّرنا لغتنا نفهم معاني القرآن و إعجازه؟! ألا يضيع إيماننا به و تسهل ردتنا عن ديننا؟؟!

فليس ثمة عذر لمن يخطئ و يسوّغ هذا بالتطور !!و اللغة لا تتطور إلى الخطأ بل يطوّر المتكلمون أساليبهم لمواكبة العصر و يستغلون مرونة اللغة و إمكان قوانينها و نظامها، و المواكبة منها و ليس من خارجها بتقري وجوه القياس و استنطاق جوانب السماع.

و لا أعلم أحداً "غير هؤلاء" كره لغته، بل رأيت الانجليز و هم يتحسّرون على لغة شكسبير لأنهم يحتاجون إلى مترجم لفهمها، و رأيت الفرنسيين يمقتون من لا يتكلم بلغتهم؛ و قد أنشأوا الجامعات في أفريقيا لإشاعة لغتهم و نشرها و دعمها.

و ليس ثمة عذر يسوغ لمن يخطئ و يعتذر بأنه ليس مختصاً باللغة العربية، و كأن الكلام بلغته بصورة صحيحة يحتاج إلى اختصاص في علم أو قسم معين، و لا يفرّق بين اللغة علماً و اللغة استعمالاً و تواصلاً بين أبناء الهوية الواحدة؛ فإذا أخطا بها فإنما أخطأ عقله بالإشارة بها إلى الأشياء و الفكر و الوجود؛ بل ثمة من يسوّغ خطأه بأنه خطأ شائع، و هذه حجة اخترعها المفسدون لتشيع الأخطاء في المجتمع العربي، و أسأل: هل إذا كانت السرقة خطأ و شاعت، هل شيوعها يسوغها؟ إن الخطأ خطأ سواء أ كان بالفعل أم بالقول، و يحاسَب الناس عليه في دنياهم و أخراهم.

و هذا كله في جانب، و في جانب آخر ثمة من يسيء إلى اللغة العربية و يهوّن من شأنها و شأن دراستها و الاهتمام بها و يستنكر على الذين يقولون بعلمية الدراسة فيها و لا يرى – كما ذكرت – علومها من العلوم جهلاً أو عمداً أو استخفافاً ! و لكن ربما لا يعلم أنَّ العلم الذي تخصّص فيه، و كل العلوم، لا تكون لولا اللغة؟ فاللغة هي الفكر، و لا شيء في الوجود له وجود لولا اللغة، و لا شيء خارج اللغة؛ و إنما العقل منظومة لغوية، و إنما الثقافة مجموعة من المصطلحات و المفردات التي لا وجود لها لولا إمكانات اللغة؛ و لا تتم عملية التفكير إلاّ بدوران اللغة في الذهن، و إنما دراسة اللغة و دراسة نظامها و مستوياتها الدلالية على رأس قائمة العلوم و ما تصنيف العلوم إلاّ بمعرفة اللغة و الوقوف على إمكاناتها؛ ألا يعلم إن الأرض تدار بقرارات من مجلس الأمن و هيأة الأمم من خلال غُرف تُصاغ فيها القرارات من علماء باللغة و خبراء بالأساليب، و أنّ دساتير العالم و اتفاقاتها الدولية المهمة التي تتوقف عليها مصائر الأمم بصياغات اللغة و دلالاتها الدقيقة التي لا يؤديها إلاّ علماء اللغة؛ بل إن اختلاف الناس بعد نزول القرآن و تفرقها على مذاهب فقهية و فكرية و عقائدية هي جراء فهم النصوص فهماً متنوعاً يثري جوانب الحياة أو يخرب الحياة؛ و أن علوم الحاسبات التي جعلت العالم كله قرية صغيرة و شبكات التغلغل و الدخول على معارف الأمم و نقلها لا تعدو متتاليات لغوية بحسابات لغوية بإمكانات لغوية و رموز تمدّها اللغة بالرمز و الشفرة و المصطلح، و لا أدري إذا استخف هذا

باللغة و علومها بأيّ علم آخر يعتدّ و أي علم يحترم، و كلّها تؤدّى و تظهر باللغة؛ إن مثل هذا الساخر بيننا كثير، و هو و أمثاله هيّأ للأمم الأخرى أن تسخر من لغتنا و تهيمن على مقدراتنا و تسوقنا من احتلال إلى احتلال. و بدلاً من أن يسخر من أقسام اللغة العربية عليه أن ينظر في الأسباب التي تجعل من هذه الأقسام ضعيفة (كما يرى هو)و أهم هذه الأسباب هو إغفال أمر تمويل نهضتها و حرمانها من التطور و هو السبب في ضعفها، و ليس اللغة و علومها، فالذي يدور الآن في أغلب جامعاتنا في العراق و في العالم العربي و الإسلامي هو الاهتمام البالغ في التعامل مع الأمور الرسمية و الإغفال البالغ لأمور اللغة العربية و علومها خصوصاً؛ فالجامعات مراكز إدارية و هممها إدارية و لذلك لم يعتمد الإحصاء المعتمد لجامعات العالم و تصنيفها الدولي جامعة عربية واحدة،و و لم تكن في المئة و لا حتى الخمسمئة واحدة من جامعاتنا، لاهتمامها بكل شيء عدا الجانب العلمي الذي لا توليه أكبر اهتماماتها؛ فالمجلات العلمية تصدر من الكليات و لكنها أما محرومة من التمويل و تعتمد على تمويلها الذاتي، و هو مأخوذ من جيوب الباحثين، أو بتمويل لا يفي بتكاليفها أو تتوقف لأنها لا تحمل رقماً دولياً بل يترك أمر الترقيم الدولي على المجلة فهي المسؤولة عن استحصاله.

و المؤتمرات العلمية تُعقد و لكن يتوجه الاهتمام في أغلب الأحيان على الجانب الاحتفالي؛ و التحقيق و صناعة المعجم و الترجمة و التأليف كلها ظواهر موجودة في جامعاتنا و لكن بلا تمويل أو يكون التمويل نادراً أو عزيزاً أو بسيطاً أو متعباً أو جزئياً أو يتوقف لكلمة إدارية تعترض طريقه، أو كلمة تخالف المزاج الإداري، أو يعترضه غير المختصين أو الذين لا يفقهون قيمته؛ و لِمَ أبعِد و جامعة تريد أن تبرز إلى الوجود و إذا باعتراض موظف على مساحتها !! و يكفي أن نذكر أن التأليف و التحقيق و الترجمة و المعجمية و حضور المؤتمرات في خارج القطر من جيب المؤلف أو المحقق أو المترجم أو الموفد إلى المؤتمر، و الجيب خاوٍ من قلة الأجور و الرواتب، و الرواتب لا تزداد إلاّ بعد نضالٍ و معارك طويلة و بشروط قاسية، بل إن أجور تدريس الدراسات العليا يتفاوت بين جامعة و جامعة و هما من وزارة واحدة، و ذلك للاختلاف بين موظفي حسابات الجامعات في تأويل التعليمات كاختلاف الأشاعرة و المعتزلة على تفسير آية من آيات القرآن.

أما التدريس في الدرس العالي و مناقشة الرسائل و الإشراف فمبني على حقوق الرتبة العلمية لا على الاختصاص الدقيق و التجربة العلمية الحقيقية، و لائحة هذا الساخر طويلة، و لا أقول إلاّ إن هذا الساخر هو الخاسر الأول: و عليه إذا أراد أن يرتفع بواقع الأقسام العلمية لعلوم اللغة العربية أن يدعو من موقعه الإداري إلى الإنفاق على التأليف و اقتراح البعثات و إنشاء مراكز للترجمة و التحقيق و تمويل المجلات العلمية.

و بعد هذا الذي تقدم أقترح الآتي:

1- إيفاد تدريسيي أقسام اللغة العربية إلى مراكز البحث الغربية و مراكز الاستشراق على وجبات للتزود من خبرات المتخصصين بعلم التحقيق و صناعة المعجم و علم المصطلح و الاطلاع على الجديد في علم النقد و الاطلاع على المخطوطات و إلزامهم تعلّم لغة حيّة و إجادتها لمتابعة التقدم العلمي في ميدانهم و تحسين طرائقهم و اطلاعهم على المصطلح و فهمه.

2- إيفاد طلاب الدراسات الأولية و العليا إلى مراكز حفظ المخطوطات في المكتبات العالمية الخاصة بالتراث العربي على مجموعات على رأسها أحد التدريسيين أمدها شهر أو شهران أو ثلاثة لتصوير المخطوطات و نسخها و تكليفهم بتحقيقها بعد أن يتزودوا من خبرات علم التحقيق.

3- إلزام طلبة الدراسات العليا و الأولية بتحقيق مخطوط جزءًا من متطلبات درجة البكلوريوس و الماجستير و الدكتوراه لما موجود في مكتبات البلد من مخطوطات.

4- إنشاء مراكز للتحقيق تابعة للجامعات لتدريب الطلاب في المراحل كافة على التحقيق و لجمع المخطوطات و تزويد هذه المراكز بالأجهزة و إيفادهم إلى مراكز العالم البحثية بصورة منظمة.

5- إنشاء مراكز للترجمة تابعة للجامعات لتدريب الطلاب في المراحل كافة على التزود من اللغات الحية و تكليف النابهين منهم بترجمة الجديد في الصحف و المجلات و وسائل الإعلام و ترجمة النتاج الأدبي و العلمي للجامعة على غرار لجنة التأليف و النشر و الترجمة في مصر.

6- إنشاء مراكز تدريبية تابعة للجامعات خاصة بتدريب الطلاب على فن الإلقاء يقوم عليها متخصصون بهذا العلم أو الفن.

7- إنشاء مراكز استشارية للتصحيح اللغوي و الحفاظ على سلامة اللغة العربية و لمراقبة المطبوع و المنشور و المذاع على غرار ما كانت تقوم به وزارة الإعلام السابقة في مراقبة المطبوعات و لكن ليس فكرياً أو سياسياً بل لغويٌ مقابل أجور لتمويل هذه المراكز.

8- مضاعفة أعداد الطلاب المبعوثين للحصول على شهادات أولية أو عليا في علوم اللغة على أساس وجبات لا تخضع إلاّ لمعيار العلم و لتعلم اللغات الأجنبية ليكونوا قادرين على الاتصال المباشر بالمصادر الأصلية التي يدرسون موادهم عليها.

9- يجب أن يكون الإنفاق على البحث العلمي عامة و البحث في علوم اللغة العربية غير محدود بعد

شراء حقوق التحقيق و التأليف و الترجمة من أساتذة الجامعات لدفع عملية البحث و تطويرها و سيكون المردود المادي من هذا الإنفاق و من إنشاء هذه المراكز واسعاً كما هو شأن أكثر جامعات العالم، فوق مردوده المعنوي.

10- الإنفاق على المجلات العلمية و دعمها و عدم تكليف الباحثين و لا المجلات بأجور النشر بل ينبغي مكافأتهم و دعمهم.

الهوامش:

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: 80.

(٢) الخصائص: 1/ 391.

(٣) الموشح: 166.

(٤) انظر مثلا: عيار الشعر، نقد الشعر لقدامه، البيان و التبيين و فيه صحيفة بشر بن المعتمر في وصايا للشعراء و الكتاب، العمدة لابن رشيق، المثل السائر لابن الأثير، مفتاح العلوم للسكاكي؛ و انظر مثلا الأصول لابن السّراج من وجهة نظر النحاة و غيرها كثير.

(٥) انظر نصوص النظرية النقدية للدكتور جميل سعيد و الدكتور داود سلوم.

(٦) اللسان: عرب.

(٧) نفسه: عرب.

(٨) انظر مجلة اللسان العربي، شوال 1388: 143-219، و انظر: مصر في فجر الإسلام: 259، و يقول القس رينودو: انه بعد فتح العرب لمصر بقرن تلاشت اللغة القبطية في مصر و لم تَعُد تُعرف إلاّ بين العلماء الذين كانوا يدرسونها دراسة خاصة

Encyclop. of Islam. under (KIBT).

و كذلك آدم متز: إن القبطية و اليونانية انتصرت عليهما العربية.

و كذلك اللسان العربي شوال 1388: 227، تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية والأفغانية والتركية و الفارسية و الكردية و البربرية و الأسبانية و اللاتينيات عموماً.

(9) موقع العربية بين اللغات البشرية،أ.د. رشيد العبيدي، الضاد، ج4: 263.

(10) بداية الدعوة إلى هجر الكتابة في الفصحى و الدعوة إلى العامية على يد مهندس الري البريطاني وليام ولكوكس في 1893، و دعوة القاضي ديلمور أبناء مصر للكتابة بالعامية و إعلانها لغة رسمية مع كتابتها بالحروف اللاتينية في1901، و سلامة موسى الذي جدد هذه الدعوة في 1926، بحجة صعوبة الفصحى، و إنها غير قادرة على التعبير عن الحضارة الحديثة، و قد وقفت مجلة المقتطف مع القاضي ديلمور، انظر: اللغة العربية بين حماتها و خصومها، أنور الجندي:60، لغتنا و الحياة،د. عائشة عبد الرحمن: 145.

(11) انظر: مجلة اللسان العربي، شوال 1388: 227، و انظر: ص 219 مقال للأستاذ عبد السلام هارون.

(12) أبحاث و نصوص في فقه اللغة العربية أ.د. رشيد العبيدي: 229.

(13) طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقاً: 8.

(14) الإمتاع و المؤانسة: 1/12.

(15) مجالس العلماء للزجاجي: 111.

(16) يقول القطامي:

و من تكن الحضارة أعجبتـــــه ... فأيُّ رجال باديةٍ ترانـــــــــا
و من ربط الجحاش فإنَّ فــــينا ... قناً سُلْباً و أفراساً حســـــانا
و كُنَّ إذا أغرن على جنـــــابٍ ... و أعوزهُنّ نَهْبٌ حيثُ كانا
أغرن من الضِباب على حلول ... و ضبّة إنّه من حان حانـــــا
و أحيانا على بكرٍ أخيـــــــــنا ... إذا ما لم نجد إلاّ أخانــــــــا

ديوان الحماسة بشرح التبريزي:1/ 129.